

نساء يكتبن

عندما
ترتجف
الأرض

قصص قصيرة

نساء يكتبن

عندما ترتجف الأرض

قصص قصيرة

عندما ترتجف الأرض

/ إشراف وتحرير: هوازن خداج

/ تصميم: هاني محمد

/ لوحة الغلاف: هوازن خداج

طبعت المجموعة القصصية تحت إشراف مؤسسة ريليزمي

(Release Me)

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة ريليزمي ©

تقديم

الكاتبة والباحثة هوازن خداج

حوالي أربع سنوات مرّت على صداقتي بشريا حجازي مديرة منظمة ريليزمي، كنا نتحدث كثيراً، ونتناقش ونتعاون في أمور عدة ومنها الأبحاث، ونؤمن بقدرة النساء على الدخول في كافة المجالات سواء فكرية، معرفية، أدبية، ونثق بإمكانياتهن على التفاعل اليقظ مع كل المتغيرات الاجتماعية والسياسية والإنسانية. قبل شهور من بدء الورشة تحدثنا عن الأدب ذلك العالم المصاط بأسوار لا يتسنى لكافة النساء اجتيازها، مثلما لا يتسنى لهن كتابة ما يمر معهن من أحداث، وتقديم أنفسهن على أنهن كاتبات لقصصهن ولهن سردياتهن التي يخبرن العالم بها. وبهذه الفترة أتيت الفرصة لدعم هذا المشروع من قبل منظمة النساء الآن من أجل التنمية تركيا ومنظمة شمديكي كاندلر. وجرى تنفيذه من قبل منظمة ريليزمي، ليشكل خطوة أولى للخروج عن فكرة أن قصص النساء غالباً ما يكتبها آخرون (كاتبة/كاتبة) ينسجن حولهن القصص والروايات من وجهة نظرهن، حتى لو كانت منصفة تجاههن، وفي التعبير عما يعيشنه، سيقين بعيدات عن الحديث عن تجاربهن الخاصة والعامة بشجاعة، وسيبقى من يملك حق السرد يملك أيضاً القوة.

والأهم سيبقى السؤال لماذا لا تعبّر هي بنفسها عن نفسها بكتابة سرديتها هي؟! والإجابة بسيطة فعلاً وهي لما لا، وعند هذه الإجابة وقناعتنا بها، يمكن أن نجعل النساء شريكات بإنتاج المعرفة. فوجود

تلك الأصوات المتحدثة عن نفسها دون وساطة أو فلترة، وحديثهن عما عشنه يشكل تحدياً، ويشكل أيضاً منبراً لتمكين إبداعهن، حيث تمتاز الكتابة الأدبية عن غيرها من أشكال الكتابة بفضح الخلل في العدالة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بأسلوب شيق، هي دائماً راصدة ومعبّرة وفاعلة في المجتمع. عدا عن كونها تعزز معارفنا جميعاً بواقع النساء وتبايناته، فالكتابة الأدبية تجتاز كافة الحدود وتعطي للنساء الثقة بأن يكتبن قصصهن، ويفسرن كل شيء من منطلق ذوات مستقلة. وهو فعلياً ما قدمته منظمة ريليزمي والمنظمات الداعمة، عبر هذه الورشة لكتابة القصص القصيرة، حيث أعطين للمشاركات مساحة للتعبير عن عالمهن الداخلي والخارجي، بمنطقهن، وأن يأخذن مساحتهن كاملة بالكتابة عن حدث الزلزال، ذلك الحدث الذي هزّ حياتهن في عمقها، جعلهن يفقدن أمان البيوت والجدران التي تحصيهن، وأعاد بعضهن إلى الخيام. فالزلزال ليس حدثاً عابراً يختبره الناس ضمن إطار حياتهن العادية. إنه الخوف والرعب الذي لا يمكن للبشر مواجهته ببساطة، أو قيادته، ومعرفة ما الذي حدث كيف تصرفت النساء مع شيء خارج عن المألوف هو لبّ الحكاية في هذه المجموعة القصصية؛ التي تتكلم فيها النساء عن ارتجاف الأرض وما حمله من دمار، ومن شظايا طالت أرواحهن ودفعتهن لیتخذن خطوة مختلفة بالتفكير والتصرف، قد تكون خطوة مغايرة لما يتصوره المجتمع عنهن كضحايا.

لقد كانت هذه الفكرة ثم الورشة نوع آخر بالنسبة للمشاركات لتمكينهن من التعبير، والحوار والتعارف، وكذلك التشافي من التجربة الصعبة التي مررن بها أثناء الزلزال حسب تعبيرهن «حين نتكلم نشفى». فقد استطعن الحديث بحرية عن كل شيء، وهذه ميزة خاصة في الجلسات حيث أنهن يثقن بما تفعله منظمة ريليزمي، يثقن بشريا حجازي، ويسرا حيدر، مديرة مركز ريليزمي في الداخل، التي أقل ما يقال عنها أنها رائعة في كيفية التعاطي مع النساء ومع ما هو جديد. كانت

حيوية يسرا ووجودها جزء غير منفصل عن تفعيل الجلسات، وتحريك الأجواء لدفع كافة المشاركات للحديث بحرية مطلقة حتى عما هو خاص. فهذه التجربة جديدة تماماً على كافة المشاركات، بعضهن لم يقرأن سابقاً، ولم يفكرن بأنهن قادرات على الكتابة والتعبير، والسرد عن طريق القصة.

كما كانت التجربة جديدة وغنية بالنسبة لي لأنها أعطتني فرصة التعرف والعمل مع نساء لم تسنح لي فرصة التعرف عليهن في الحالة العادية، واختبار قدراتي على تجاوز الحدود وحالة البعد الفيزيائي، وبالفعل غطى وجود يسرا وحركتها على تحديات الشاشة في «جلسات الزوم»، كان وجودها معهن، يشعرنني أنني معهن، أعرفهن، وألمس انفعالاتهن وهن يسردن ما مرّ معهن في حدث الزلزال. كانت تجربة شيقة وضمننا جميعاً في دائرة التعلم ومتعة المعرفة.

ما يمكنني قوله حول هذه المجموعة القصصية التي تضم اثنتي عشرة قصة قصيرة، إنها تجربة جديدة بالنسبة للمشاركات يسردن فيها كافة التفاصيل التي اختبرنها، ويرصدن كل الظروف المحيطة بهن، ليكتبن لأول مرة ما مرّ معهن من لحظات عجز وقوة، انكسار وقيادة في فترة الزلزال. هذه التجربة قد تكون فتحاً لباب آخر يدخلن منه بطريقة مغايرة يُسمعون فيها القارئ من كان وأينما كان سردية مختلفة هي بطبيعة الحال أكثر صدقاً وإنصافاً لحورن وقدرتهن على التصرف، إنهن من خلال مشاركتهن بكتابة قصصهن يقدمن طريقاً آخر لإسماع صوتهن مع كل الأصوات الأخرى واللوان الأخرى التي تتحدى القوالب التقليدية وحالات التهميش فيما يخص قدرتهن على سرد الحدث وعلاقتها فيه بأنفسهن، ويتيح لنا نحن القراء إمكانية سماع أصوات متعددة ومتقاطعة للحديث وسرد التجربة، ويضع الشخصية النسائية في محور الحدث.

القصص:

- 1 النرجس 8
وفاء نجيب
- 2 ساعة لا تنسى 17
أمينة إبراهيم
- 3 يوم ميلادي 22
راما دباس
- 4 عندما تنجو الذاكرة 26
روعة حيدر
- 5 فجر مظلم 33
أمينة حسن
- 6 شعور مزدوج 39
عهد العربي

7 أسيرة ليلة مرعبة 46
ريم حسين

8 كابوس 52
زهرة الرمضان

9 الخُلع 57
إيمان دياب

10 على وقع الكارثة 66
حنيفة حمزة

11 ذكريات باردة 71
هند مراد

12 مرّ يوم بسلام 77
يسرا حيدر

النزجس

وفاء نجيب

بعد خروجي من المعتقل، صرت أبحث عن سعادتي من لا شيء وأبحث عنها بين الانقراض أبحث في زوايا دروب الحياة عن أي فرصة سانحة، لأمنح نفسي السعادة وأصنعها، دون أن أنتظر أحداً ليعطيني إياها. لن أسمح للسنين أن تأخذني إلى الماضي، الله لم يخلقنا لكي نشقى بل لكي نعيش حياة طيبة.

قبل أن يتم تهجيرنا إلى الشمال السوري. كنت قد تزوجت وصرت أما لطفلين مريم وعز الدين، ورغم أن التهجير والعذاب في الفترة الأولى كاد يفطر قلبي حزناً وألماً، إننا غرباء في وطننا! كان هذا مؤلم لي. لكننا عشنا كحال الكثيرين في نقلنا إلى عالم مجهول لا نعرف أحداً فيه، في مدينة عفرين. لكن بعد شهور صرنا نتأقلم مع حياتنا الجديدة استطعنا أن نجد بيت صغير مناسب لنا، وصرنا نبحث عن أخ وأخت لنستطيع أن نكون عائلة جديدة، ووجدت عملاً قريباً من بيتي فرحت به كثيراً. بدأنا نعيش حياة كريمة، أحب العمل في الميدان، ولدي مهارات تساعدني على بناء علاقات مع جميع فئات المجتمع.

تعرفت على نساء مهجرات من الشام ومن جميع المحافظات فرحت كثيراً، وتمنيت صداقتنا صرنا نلتقي كل صباح ونقضي أوقاتاً جميلة في مكان العمل وفي زيارات أهالي الحي طيبي القلب. كما أنجبت طفلة أسميتها قمر أضاءت أيامي في تلك الغربة وكانت جميلة كالقمر.

كان الحي يشبه حينا في الشام، يسكن بداخله عدد كبير من الأهالي ما بين مهاجر ونازح ومقيم، نعم أصبحت ألقب بمختار الحي، أعرف كل أهالي الحي من صغيرهم إلى كبيرهم، مصابهم من مصابي أشاركهم أفراحهم وأحزانهم. ففي كل بيت حكاية وقصة.

وكنت أشجع النساء على سرد قصصهن وحكاياتهن وأغلبهم ناجيات

من سجون النظام المجرم الذي لا يحترم حقوق الإنسان، وينتهك حقوق المرأة على وجه الخصوص، كنت أمتلك الشجاعة والجرأة، ومؤمنة بقدرة النساء السوريات وقوتهن في التغيير.

كل هذا جعلني أنظر بطريقة مختلفة، أثق برؤيتي، وأصر أن أكمل الطريق وأركز على نقاط القوة لدي، وأشجع نفسي عندما ألتبس انجازات حققتها في عملي على سرد قصص النساء. فأنا بعد أن دونت في دفاتري حكايتي في سجن عدرا، وفي الفرع العسكري، وكتبت تفاصيل كل يوم في السجن، تمكنت من إخراجها جميعاً، دفاتري هذه هي وثائقي، التي لن تسمح للحقيقة أن تموت، لم أقف مكتوفة الأيدي بل على العكس تماماً شعرت بالمسؤولية تجاه كل المعتقلين والمعتقلات وأخذت عهداً على نفسي بأن أسعى لأكون صوتاً لهم ورسالة منهم لكل العالم.

حدس ما قبل الزلزال

كنت أعيش مع عائلتي في مدينة إعرزاز التي انتقلنا إليها بعد ثلاث سنوات من الإقامة في عفرين، أحببت تلك المدينة، ورغم الاعتراض من زوجي وصديقاتي وحزني على فراق الجيران الطيبين، وافق زوجي على أن ننتقل وبقي عملي في عفرين، وجدنا بيتاً في حارة شعبية، في الطابق الأرضي. كانت تجربة جديدة، فأنا اعتدت أن أسكن الطوابق العالية، كان كل شيء مريح البعد عن الشارع العام، وجود مدرسة وروضة خاصة لأولادي قرب البيت، وجود سوق وحديقة، أطفال سيكونون بخير مع زوجي الذي تمنيت أن يجد فرصة عمل تتناسب مع قدراته، فأنا سأستمر في عملي في مدينة عفرين. صرت بعد الانتقال أكثر تفاؤلاً، كان لدي حدس ما، وكل يوم أقول لزوجي (قرّبت)، وأقول لصديقاتي في

العمل اللاتي نتحدثن عن معانتهن وألم غربتهن، أو ذكرياتهن الماضية، أن كل شيء سيتغير صدقوني اقتربت، سوف تجتمعن بكل ما تحبين. هكذا كان شعوري منذ بداية العام 2023، بأنه لن يكون كالعوام السابقة. كنت أشعر بسكينة وراحة، وكانت ضحكاتي تملو للسمااء حين أتحدث مع أحد، وحين يسألون عن سبب فرحي أقول لهم: سيحدث شيء عما قريب، في بداية العام لربما في العاشر من شباط. كنت أتوقع الانتصار، الانتهاء من الحرب، سقوط النظام، خروج المعتقلين، لا أعلم ولكن شيء جميل سيحدث. كان هذا الشعور جديد بالنسبة لي لدرجة أنني أمضيت الأيام أترقب ما سيحدث، حتى صديقاتي انتظرن معي.

قبل الزلزال بيوم، قضيت ليلة جميلة مع صديقتي، خرجنا في المساء نتجول في شوارع المدينة، ودخلنا نأكل النابلسية الدمشقية، وأنا أقول لها: أيام وسيتغير كل شيء، أشعر أنني أودع كل من أراه، تفاجأت صديقتي بما أقوله، كنت أضحك.

في يوم 5 الشهر مزحت معي صديقتي المقربة لقلبي، قالت وهي تضحك: إن لم يحدث شيء سأبصق في وجهك، ضحك من حولنا من مزاحها وهي تعدني بالبصقة في وجهي. وقلت لها ضاحكة: أنا متأكدة من مشاعري ولن أغير. هذا الشعور أتانني قبل أن أخرج من المعتقل.

كان يوماً هادئاً ومضحكاً كانت سعادتي تنتقل لكل من حولي، وتعطيني الطاقة. عُدت يومها بمرح إلى بيتي، لأكمل ما عليّ من أمور تخص البيت والأطفال. في الليل لأول مره طفلي الصغيرة قمر ترغب أن تنام مع إختوها، سمحت لها وذهبت إلى غرفتي لأنام وضعت جهاز الهاتف بجانبني.

إنه الزلزال

في الساعة الرابعة فجراً سمعت زوجي ينادي بصوت عالي: وفاء هيا نخرج من البيت، إنه زلزال فتحت عيوني، لم أدرك ما يحدث ركضنا نحو غرفة أطفالنا ننادي بأسماء أطفالنا، مريم، عز الدين، قمر، نوقظهم. لم يكونوا قد شعروا بشيء، وصل زوجي لغرفتهم وأمسك يد ابنتي مريم، وحضنه قمر وعز الدين، وخرج من غرفتهم بسرعة وأمسك يدي متجهاً نحو الباب الخارجي للبيت، تذكرت أنني لم أرتدي حجابي، أخبرته لن أخرج معك أخرج أنت والأطفال وسألحقكم.

مشيت نحو غرفتي، كنت أتلمس بصيص الضوء، وأخذت أتذكر عندما زلزلت الأرض بي للمرة الأولى قبل تسع سنوات أثناء اعتقالنا، كأن كل شيء يحدث الآن، أصوات المعتقلين، والمعتقات، رائحة الموت، الألم، فكل ما يعيشه الناس الآن من خوف وقلق يشبه ما عشناه أنا وكثير من المعتقلين غيري.

نعم من بداية الثورة عشت هذه المخاوف كلها.

كانت الجدران تتمايل يميناً وشمالاً، وتهتز الأرض تحت أقدامنا وكأنه يوم القيامة. وكان زوجي ينادي باسمي، وأصوات تكبيرات تعلو في السماء، والنساء تصرخ خوفاً على أطفالهم وأرواحهم، خوفاً من الموت، كان كل شيء يذكرني بذلك المكان الذي هُزّ مشاعري وجسدي من قبل.

كل هذا حدث بدقائق، وجدت حجابي وهاتفني، خرجت من تلك الغرفة التي أصبحت كابوساً في عيني، وخرجت من البيت كأنني لن أرجع إليه مرة أخرى. وكان زوجي وأطفالنا قد فقدوا الأمل من خروجي منه، لأن كل من بقي في البيوت أثناء الهزات القوية المدمرة، لم يخرج.

في البداية لم أتوقع الدمار الذي حدث بسبب الزلزال، كنت قوية في تلك اللحظات، وكنت أشعر بالسكينة والاطمئنان. لم أشعر زوجي وأطفالي بالخوف حين تفاجأت بكل ما رأيته من دمار، فالأبنية المجاورة لبيتي سقطت على الأرض، الأحجار في كل مكان.

أصوات صراخ الأطفال، وصوت الرعد والمطر يتساقط بغزاره، كل من لديه وسيلة نقل خرج بها مسرعاً إلى الشوارع العريضة ليلتعد عن الأبنية، ومن لم يمتلك سيارة ركض على قدميه وهو يحمل من وما يستطيع حمله من أطفاله أو أغراضه على ظهره، كل شيء وكأنه يوم القيامة.

أما زوجي فطوال الوقت يكبر ويعلو صوته: الله أكبر.. كان خائفاً كثيراً علينا، ويكرر الحمد لله لأننا نجونا جميعاً، خاصة عندما وصلنا إلى الشارع العريض وتخلصنا من ذلك المكان وماراته الضيقة وأبنيته العالية، الذي صار كابوساً لكل من نجا منه.

كنت أراقب كل ما أراه وأسمعه، كان الناس في الطريق يتصارعون مع الموت، ويصارعون لأجل البقاء. وصلنا عند دوار يدعى دوار الجمال في مدينة إعزاز، ملأ الناس المكان، وكأنه يوم الحشر.

قالت طفلي مريم: أمي ماذا يحدث، لماذا نحن هنا؟ لماذا الناس كلهم هنا؟

قلت لها: لا شيء لا تشغلي بالك، الآن ستأتي السيارة لأذهب للعمل وأتى أباك معي، وأحب أن تكوني معي، حاولت أن أخفي الأمر عن طفلي. في السيارة نامت قمر وكان عز الدين يريد النوم، صارت السيارة بيتاً آمناً لنا، كنا بخير عندما طلع الفجر وزال الظلام.

كانت الساعة السابعة صباحاً عندما استلمت الرسالة بأن علينا الالتزام

بالدوام جميعاً، في البداية رفض زوجي لئلا أضع غير مناسب، قلت له لن يحدث شيء إلا بإذن الله، وسأستودعك أنت والأطفال بحماية الله، وادعني لي أن أرجع بخير. يجب أن أقوم بواجبي وأطمئن على صديقاتي. ودعت أولادي وزوجي وركبت في سيارة الكادر الطبي، سلمت على أصدقائي، كانوا خائفين ووجوههم شاحبة من هول ما حدث، فرحت أنهم نجوا.

وعندما وصلنا إلى مدينة عفرين، خفت وبدأ قلبي يدق بسرعة مما رأيت، الأبنية سقطت على الأرض بمن فيها. بدأت أتصل بصديقاتي في الحي، ما من مجيب. كنا نتساءل كيف انهدمت كل البيوت كأنها مصنوعة من كرتون، كانت الحجارة تملأ الأرض، ورائحة الموت في كل مكان وعندما وصلت إلى الحي ورأيت الدمار، انهمرت دموعي حزناً على ما أراه.

لم أتوقع هذا من قبل، البارحة كنت هنا، وكنا نضحك من كل شيء، كيف انطفئ النور وتحول لظلام؟! الحي كله فارغ، أوقفت السيارة عند مفرق بيتي القديم قبل انتقالني لإعزاز، مشيت نحوه لكن لم أجد البناء كما هو فقد سقطت الجدران على الأرض، ولا أعرف أين ذهب جيرانني، الناس الذين كانوا فيه ماذا حل بهم، ومن تبقى منهم؟ وأردت أرجوك يا الله أن يكونوا بخير.

في تلك اللحظات شعرت بالغربة مشيت أيضاً نحو بيت صديقتي، وجدت الدفاع المدني يحاول مساعدتها، كانت هي وزوجها تحت الأنقاض، كانت الوجوه كلها شاحبة ينتظرون خروج الأتربة من تلك الحفرة، هكذا أمضيت يومي أبحث عن أهل الحي، وأتمنى ألا يصيبهم أذى، إنهم ضحكتمني وفرحتني.

ثم أخذت أركض نحو المشفى التي أعمل فيها التحقت بزملائي، دخلت من قسم الإسعاف، لم أتمكن من السير، الضحايا كثير كانت الجثث تملأ الممر، فأرضه لم تتسع ضحايا. وصلت قسم العيادات، التقيت بصديقتي التي توعدتني بأنها ستبصق في وجهي، نظرت إليها نظرة ألم ووجع، قالت: ليس هذا هو شعورك الألم والحزن والوجع والموت؟! وأخذت الدموع تذرف من عينيها، حضنتها وأنا أقول: أن كل ما حدث هو خير إن شاء الله. لكن علينا أن نقدم ما نستطيع. وجهزت نفسي للانطلاق إلى الميدان، لأطمئن على من بقي ونجا من الكارثة. توجهت في البداية نحو صديقتي التي تسكن قرب المشفى، وأنا خائفة صرخت باسمها، لم تجب، ثم رأيتهما مع عائلتهما جالسين في الداخل، متعبين. نظرت إلى جدران منزلها المتضررة والأبواب المكسرة، نجوا بأعجوبة ولم ينج البيت، حمدت الله أنهم بخير. وتابعت مسيري للبحث عن تبقى في البناء، كانت الوجوه تتكلم عما حدث. كانت الكهرباء مقطوعة والإنترنت أيضاً أخذت أصعد الأبنية وأدق الأبواب باباً.. باباً. وأسهرت لأصل البناء الذي سقط فوق صديقتي وزوجها، وجدت قريبتها التي أخبرتني أنهم ماتوا، لم يستطع الدفاع المدني انقاذهم.

بعد محاولة تقارب خمس ساعات، شعرت بالعجز ولم أتحصل البقاء في تلك المدينة، بعد أن خسرت كثير ممن أعرفهم، خرجت مكسورة القلب، لأصل إلى البيت إلى أطفالتي وزوجي الذين ينتظرونني بفارغ الصبر، وكنا نشعر بالهزات الارتدادية فخرجنا من البيت نتجول في الشوارع إلى أن تهدأ الأرض.

النرجس

في اليوم التالي، خرجت للعمل لمتابعه مسيرتي اليومية، وخطر في بالي أن أبدأ العمل الإغاثي، أطلقت حملة كبيرة في ذلك الحي، تواصلت مع الفرق الناشطة والمنظمات الإغاثية، ولأني أحب الكتابة والتوثيق، أخذت أوثق كل ما حدث ونشرته على صفحات التواصل الاجتماعي، لئلاسلط الضوء على ما جرى من قهر وألم. هذه المرة لم يكن الحدث لمجموعة من الأشخاص وإنما لعامة الناس، فكل من بقي على قيد الحياة هو ناج.

أصبح لدي مهام كثيرة عليّ المساعدة في إنقاذ من تبقى، فالأهالي بحاجة لماؤى بعد أن دمرت منازلهم، بحاجة لطعام وشراب أيضاً، فعملت مجموعه واتس أضفت أرقام أهالي الحي بأكمله لأطمئن عليهم.

ومن هنا أنشأنا مبادرة أطلقنا عليها اسم النرجس، أنا ومجموعة من النساء كالنرجس يظهرن ويثمرن في أشد المواقف، وهكذا هي زهرة النرجس تزهر في الشتاء عندما تموت الزهور وتحيا بين الصخور.

لم نجلس في البيت طوال فترة الزلزال كنا منتشرين في المخيمات والشوارع لتقديم الدعم النفسي والمعنوي، لا أتذكر لحظة انتهاء الزلزال وكيف نجوت منه ودبرت أمري للنجو، وهل انتهى الزلزال فعلاً؟! ورغم أن مصابنا واحد، استطعنا الوصول إلى أعداد كبيرة من العائلات التي دمرت بيوتها. كانت أيام ثقيلة على قلوبنا، لكننا استطعنا أن نحيا، وننجو. وكانت لدينا القدرة على أن نرسم الفرحة على وجوه تعبت وأرهقت من كثرة الخوف والحزن.

ساعة لا تنسى

أمنية إبراهيم

أعشق شتاء مدينتي عفرين، ففيها تتناثر حبات المطر واللؤلؤ (البَرْد)، وتنبعث رائحة الأرض الذكية، وحين تكتسي الجبال بالثلوج تتحول إلى أهرامات بيضاء، أما سهولها لوحة إلهية مبدعة بجمالها وجلالها، مع هذه الصورة الرائعة عن عفرين انتصف الليل. اتخذت من سريري ملاذاً دافئاً آمناً من البرد، واستسلمت لنوم عميق هادي. لم يدم الهدوء طويلاً تلك الليلة، بعد أن باغته اهتزاز السرير المرعب، ومزقته أصوات الأبواب والنوافذ المفزعة. انتفضت بسرعة من الفراش كي أفتح أبواب ونوافذ غرفتي خوفاً عليها من الكسر، ظناً مني أن مدينتي تتعرض للقصف ثانية من طيران أو قذائف غادرة أنت تحصده المزيد من الأرواح •

لم أكن لندرك ما يجري، إلا بعد أن ارتفع صوت زوجي بالدعاء « يا لطيف الطف بعبادك»، وتقطعت أنفاسه وهو يقول: أسرعوا بالخروج من المنزل. حينها فقط أدركت أنها (رسالة سماوية وليست بشرية) إنها ليست الحرب، ليس قصفاً، إنه شيء مختلف، لا أعرف، ربما يحق لي القول بأنه أقوى وأعنف.

ارتديت معطفي الشتوي، خرجت من غرفتي وبدأت البحث عن حذائي الذي لم أجده من هول الهزّة. وكان ابن زوجي علي، الشاب العشريني القوي البنية الذي يعمل محاسباً، يستعجلني هيا خالتي اخرجي بسرعة الخطر يحدق بنا، وهو يردد: انا سأتيك بالحذاء •

كنا جميعاً نهرع إنقاذاً للأرواحنا، حمل علي تصت إبطه أحد الأطفال الذين زلت أقدامهم بالنزول عن الدرج. صرنا جميعاً وسط الزحام، نظرت خلفي كانت الحجارة تتساقط من منزلنا، فنحن نسكن الطابق الأول، وأعمدة المدخل القوية تتصدع. بدأت البحث وسط الزحام والظلام والرعب عن زوجي، الذي وجدته ينتظرني، وقفت بجانبه لا أعلم أكنت

أحميه أم أحتمي به!

ولكنني وقفت بثقة أوجه بعض الملاحظات للنساء حفاظاً على سلامتهن وأكرر أمامهن: لا تنزلوا إلى ملجأ البناية، لاتقفوا محاذة الجدار، لا تجلسي تحت الشجرة.. بينما نضّب الرجال أنفسهم أو صياد علينا، يطلبون منا الدعاء والتوسل لله. ويغطي هرجهم على دمدمات النساء بالدعاء والاستغفار، ويعلو صوت أحدهم بالقول الزلزال لا يقتل إنما طريقة البناء هي التي تقتل. للحظات لم أعد أسمع ما يقولون، أو ما يرددون، كان جُلّ همي حينها الاطمئنان على أهلي بالقرية التي تبعد 40 كم عن عفرين ولا سبيل للذهاب، أو الاطمئنان فمن هول الصدمة نسيت هاتفي.

وما أن هدأت الأرض، قرر الرجال الصعود إلى منازلهم وجلب الأغراض الضرورية، ركض علي يجلب سترة والده المرتجف من البرد، وهاتفي الذي صار منقذي من حالة القلق على أهلي. أمسكت بالهاتف بيد مرتجفة وقلبي يدعو لهم أن يكونوا بخير، وقبل أن أتصل رن هاتفي، إنها أختي الصغرى تولين التي اضطرت لترك جامعتها، قبل التخرج بأشهر ولحقت بوالدي في القرية لتكون عوناً لهما •

أجبت على المكالمة بسرعة وبصوت عال، لم يكن يهمني من يسمع صوتي المهم أن أطمئن عليهم •

ألو.. ألو هل أنتم بخير

أجابتنني: بصوت مرتعد خائف، نعم بخير، وأنتِ

أجبتها بخير، المهم أنتم

وأكملت تولين غادرنا المنزل إلى خيمة كبيرة نصبها الشباب على عجل، عدت للمنزل لأخذ بعض الأغطية فالجو بارد جداً على والدي في الخارج. لقد تصدّع جدار غرفتهما، وانهار سور السطح، وتكسّر أثاث المنزل. لم أنتظر حتى تكمل إحصاء الأضرار.

قلت لها بصوت عال: غادري المنزل، غادري بسرعة.

لم أكاد أغلق الهاتف حتى بدأت هزة أخرى، انتبهت لمن هم حولي، بدأ الزحام يخف، بعد أن تيقن الجميع أن عليهم الهرب إلى الأماكن الخالية من التبنية العالية. بقينا فقط ثلاث أسر في أحد البيوت العربية في الحي الذي يسكنه أهل زوجي. دخلنا المنزل حذرين متأهبين، حتى بعد توقف الهزة. مر الوقت ببطء شديد، جلسنا بصمت. اتخذت مقعداً قريباً من الباب لسهولة الهرب، حينما خرج الشباب لتفقد الأقرباء.

لم يمض وقت قصير حتى عادوا بأخبار الدمار والموت المريعة، ومع كل جملة يقولون: لازم نساعد، لازم ننقذ حدا. ورغم أن تلك الأخبار جمدت الدم في عروقي، وكاد الصداح يمزق رأسي، تماكنت نفسي قليلاً، وأسرعنا جميعاً صعدت أنا وزوجي للمنزل، دخلنا المبنى بصعوبة من كثرة الحجارة المتساقطة، صعد معنا بعض الشباب المتطوعين لإعطائهم الفرش والأغطية والملابس، كان المنزل مزرباً، ولم يمضي على طلائه أسابيع، الجدران متصدعة، خزانة الملابس انقلبت وانكسرت، وكذلك بعض الزجاج، وحجارة الشرفة قد سقطت. خلال ساعة واحدة فقط، جمعنا ما نستطيع جمعه من ملابس وأغطية. وقال أحدهم: سيارتي جاهزة لتوصيل الأغراض. خلال تلك الساعة اختبئ الخوف من الهزات في مكان ما، أو طغى عليه شعورنا بضرورة المساعدة، والقلق على من نعرفهم.

كان يتوجب عليّ الاطمئنان على من يعملون معي في الكادر التعليمي سواء في عفرين أو نواحيها. ولأن تلك الساعة، يبست حنجرتي وأودت بصوتي، اكتفيت بإرسال رسائل للجميع وانتظار ردهم.

وتوالت الأخبار تقول إن من في عفرين بخير، لكن جنديرس؟ مضت ساعات قبل أن أسمع الأخبار عنهم وينفطر قلبي.

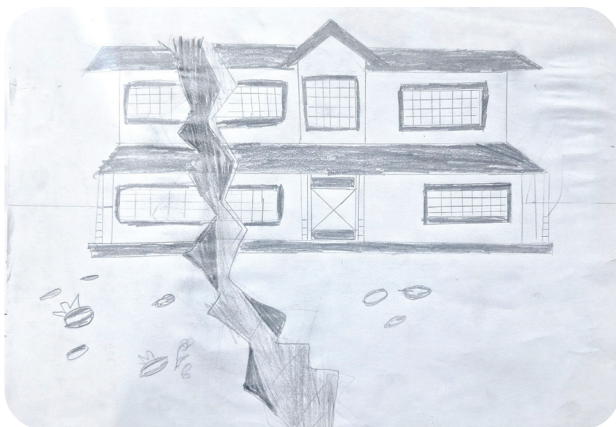
كانت عادة أولى المتصلات، وبصوت ضعيف يشبه الأنين، أخبرتني أنه تم إخراجها مع أولادها من تحت الردم، وأن أولادها بخير، وتعاني جرحاً في كتفها يحتاج إلى تقطيب. وتلتها كوتر بصوتها الباكي، وهي تردد لسنا بخير، لا، لا لسنا بخير. لقد استشهد من مركزنا ستة أطفال ستة يا أنسة ومعلمة، وغاب صوت كوتر من شدة البكاء.

لم أسمع أو لم أسأل عن أسماء الأطفال، لكن تخيلتهم جميعاً يترمون في أحضاننا بحثاً عن حنان افتقده، اضطربت مشاعري، وجبست دموعي لأنها لا تكفي للتعبير عن الحزن، وستردعني عن التواصل مع الإدارة لإيجاد المأوى لأولئك الأطفال ومساعدتهم.

ومع إشراقة الشمس بدأنا نلمس كمّ الحزن في قلوبنا، ورغم إدراكنا أن هذا الحدث سيخفّ وسيختفي مع مرور الأيام، ويعود كل شيء كعادته، نسبياً. لكن ذاكرتنا ستحمل معها تلك الساعة التي فقدت الأرض توازنها، ورفضت وقوفنا عليها، وقد تتداخل مع كل ترتيباتنا للحياة وأدائنا، كما تتداخل كل شيء حينها، الظلام والنور، الحياة والموت، العجز والقدرة، التي قد نتعلم منها أن لا أحد يملك الحل منفرداً، لا أحد يحمل هموم كارثة وحده، بل جميعنا نحمل أعراض كوارثنا وهمومها وتبعاتها، ويبقى علينا إيجاد أنفسنا تحت الركام لنعالج جميعنا معاً ما نحمله.

يۈم مىلادى

راما دىباس



عدت من المدرسة متعبة جداً، دخلت المطبخ على الفور لأحضّر الطعام بعد أن انتهيت، ناديت أمي لتأكل معي وأخبرتها عن كل ما حصل معي من وقت خروجي من المنزل إلى أن عدت إليه، لئنهي من الأكل، واستسلم للنوم بعدها.

فتحت عياني لأجد الساعة الثانية عشرة منتصف الليل، دخلت لغرفتي وجلست أكتب واجباتي المدرسية، بوقت متأخر مع هدوء الليل المظلم، على غير عادتي. عندما انتهيت تمددت في فراشي وقبل أن أطبق جفوني، وإذا بسريري يهتز اهتزازاً مربعاً لم أكن أعلم ما يحصل، لكنني خفتُ كثيراً، حين هدأ خوفاً للحظات نظرت حولي كل الأشياء كانت تهتز وتتحرك، أدركت أنه زلزال.

تجمدت في أرضي ولم أستطع الحراك، أحسست أن قلبي خلع من صدري من شدة خوفاً. بدأت بالتكبير والصراخ، استيقظت أمي على صوتي، قالت لي: راما ما بك؟

لم تكمل كلامها، فقد أدركت سريعاً أنه زلزال، أمسكت يدي وركضت مسرعة إلى الباب، لنجد أختي خرجت من غرفتها مع ابنتيها تركض أيضاً باتجاه الباب وتحاول فتحه، لم يفتح معها من شدة خوفها. فتحته أنا ويدي ترتجفان، كنت أصرخ وأقول أركضوا السقف سيقع فوق رؤوسنا.

ركضنا مسرعين دون ارتداء حجاب أو حذاء أو معاطف تحميّنا من البرد الذي كان في الخارج. ونحن نزل على الدرج بدأ الركام يتساقط فوق رؤوسنا، لم أر شيئاً على الإطلاق، وتداخلت كل الأصوات بأذاني أصوات الجيران وبكاء بنات أختي، وبدأت أنا أيضاً بالبكاء، ولم أترك يد أمي، بل أردت لو أني أحضنها وأبقى ملاصقة بها كل الوقت.

خرجنا إلى الشارع كانت أختي تحتضن بناتها وتحاول تدفئتهن بيديها، نظرت إلى أولاد الجيران الذين مازال أهلهم عالقون تحت الأنقاض وفرق الإنقاذ تبحث عنهم، ثيابهم مبللة من المطر ويرتجفون من بردهم، كاد قلبي يتقطع عليهم، فقد كانوا قبل لحظات ينامون على فراشهم الدافئ والآن هم على هذا الحال.

حضنتهم وضممتهم إلى صدري لأخفف خوفهم، وأشعرهم بالأمان والراحة، وودت لو أخبأهم بقلبي ليهدؤوا وترتاح نفوسهم.

لم نتصور ما حصل ولم نتوقع هذا اليوم أبداً.

جلسنا بمكان قريب من المنزل.

وعندما تبدد الظلام رأيت جثث الذين ماتوا تحت الأنقاض، والمصابين.

لم يستثنى الزلزال أحداً، كانوا أطفال وكبار نساء ورجال، منظرٌ أصابني بالقشعريرة.

ركضت للمساعدة بكل ما أوتيت من قوة استجمعت لذلك كامل طاقتي، ساعدت بتضميد الجروح وتجبير الكسور.

كنت أرى الأشخاص تبتز أرجلهم وأيديهم بعد إخراجهم من تحت الأنقاض ظنوا أنفسهم نجو من الموت ليعيشوا بصراع مع ما حل بهم.

سألت عن أمي لأعرف من أختي أنها ذهبت للمنزل لتفقد حقه لحقت بها رأيته أمام باب منزلنا الذي تهدم، كانت عيناها تنهمر بالدموع، ضممتها بقوة قلت لها لا تبكي فأنا أستمّد قوتي منك لا تبكي دموعك تكوي قلبي. دخلت معها إلى المنزل لإحضار بعض الحاجيات

لنا، ركضت للبحث عن حقيبتني المدرسية، وجدتها تحت الركام، وكتبي التي وضعتها على مكتبي طمرت، فمكتبي تحطم بعد أن سقط عليه جدار الغرفة. حاولت سحب كتبي، وإخراجهم لكن أغلبهم تمزق، ملأت عيناى الدموع.

كنت أريد البكاء لكن أمي بجانبى، لا أريدها أن تحزن لأجلى لكنها أحسست بما بي وقالت لى، تعالى نخرج، احتسبت أمرى إلى الله وقلت، المهم أننا خرجنا بخير.

6/2 تاريخ وقوع الزلزال هو نفسه تاريخ ميلادى

كنت أنتظر بهذا اليوم الحفلة التي اعتدت عليها كل سنة من أمي. أنتظر المعايدات من صديقاتى والفرحة التي تغمرنى باجتماعهم حولى. بدأت أقول فى نفسى هل هو يوم شؤم؟! لا.. لا أبعدت الفكرة من رأسى

لأسمع أمي تقول لأختى: اليوم هو ميلاد راما يا له من يوم مشؤوم

-إنها نفس الكلمة التي فكرت بها

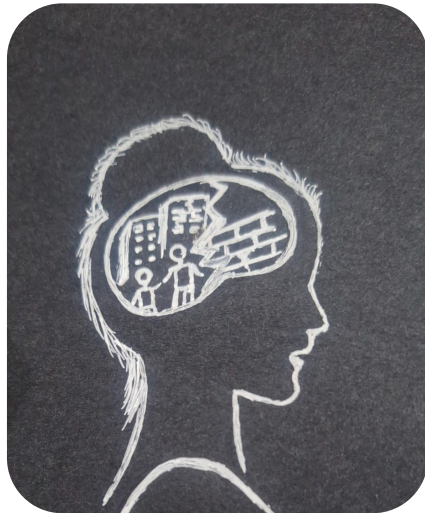
وأكملت يجب أن ننسى هذا التاريخ إنه يذكرنا بالزلزال فقط، إنه يوم كارثى على الجميع. وأيضاً قالت أختى لى: إنسى هذا اليوم ويجب أن نحزن به لا نفرح.

وسمعت ذلك أيضاً من صديقاتى.

ومنذ ذلك اليوم نسيت تاريخ مولدى، ولا أحب أن أذكره أبداً.

عندما تتجو الذاكرة

روعة حيدر



اختتمت سبع سنوات الحرب بالتهجير، لم يجد التمسك بالأرض نفعاً، ليلتان في الطريق لنجد أنفسنا فيما بعد في مخيم، لم أستطيع تقبل الأمر، ولكي أستكمل الـ 20 يوماً فيه، احتاج الأمر حرباً من نوع آخر، ليال تشبه جرعة الكيماوي لمرضى السرطان، ألم لا هروب منه.

انتقلت بعدها للسكن بقرية صغيرة، محاولة منا إيجاد الأفضل، إلا أنني لم أستطع الاستمرار، فأنا خرجت سعيّاً نحو مستقبل أفضل لأطفالي، لنجد نفسي بمكان يفتقر لكل وسائل التخييم والتعليم.

لم أياس، انتقلت بعدها إلى مركز المدينة، حيث يجتمع مزيج من كل المناطق السورية، أملاً مني بإيجاد الأفضل لي ولأولادي. كنت أبحث عن مدينة تحاول التعافي من الحرب، ومن الصراعات حول من الجاني ومن المجني عليه، التي تدفعنا لنضيع بين أزقة الصراع، لم أكن أطمح وقتها سوى بجدران وسقف يأويني وأطفالي لأبحث وأبحث، استغرق الأمر أشهراً حتى وجدنا أخيراً بيتاً في ذلك البناء، الذي استبدلت فيه ثلاث منازل لكل واحد منها قصة. وكان آخرها ذلك المنزل في الدور الثالث، بدأنا ننقل إليه مع ذروة الشتاء. كانت الثلوج تتساقط في الخارج ونحن نحمل أمتعتنا وننظف في الداخل. لم أكتث لبرودة جسدي، أو تجمد أصابعي، فافتقاري لمنزل كان أشد برودة. ولم أكتث لوضع المنزل، وعدم اكتمال الإكساء، ولا لثرويته المتعرجة، ولا لجدرانه الرمادية اللون، غياب الطلاب، أو لإنارته غير المنسقة، فكها لم تعن شيئاً بالنسبة لي، فإطلاته تطغى على كل ما في الداخل.

كان المنزل مطلقاً على بستان كبير واسع، تدرج فيه ألوان الخضرة تتوسطه رشاشات المياه المتوازية، التي تبدأ الالتفاف قبل المغيب لترويه. كنت أراقب دورانها كمراقبتي لمتدين صوفي يلتف بثوبه

الأبيض، ويرقص منتشياً متصلاً بالسما.

ويسبحني انتظار العصافير لتعود إلى أعشاشها، وابتسم لها، كأني أود لو أخبرها بأنني أنا أيضاً لدي عش أعود إليه.

كنت أتجول فيه وأزيت به بعض الرفوف، وملأت شرفته بأنواع الورود وبعض الخضرة.

مرّت سنة على وجودنا زوجي وأنا وولدان وتلك القطعة في ذلك المنزل، كان عددنا كافياً لنملأ المكان بالدفع. لكن عاد الشتاء غاضباً مصحوباً بهتزازات للأرض، تكررت بنسب متفاوتة لا يمكن تجاهلها أو نسيان تفاصيل تلك الليلة، حيث كان زوجي خارج المنزل فهو يعمل ليلاً.

في تلك الليلة أيقظتني قطتي الصغيرة على غير عاداتها، كانت تموء وتموء مقتربة من وجهي، وكأنها تطلب شيئاً، وتوجه نحو الباب الرئيسي للمنزل. استغربت الأمر فهي لم تخرج قبلاً منه، ضممتها وأخذت أسألها ما بك، لتعاود المواء وكأنها تطلب مني بإشارتها أن أفتح لها الباب لتخرج، لم أعتد من قبل تجاهلها، لكنه شهر شباط الذي دفعني كي لا أكرث.

أحكمت الغطاء على أولادي وهم نائمون وعادوت الجلوس، أسندت ظهري على الحائط، أمسكت بهاتفني لأعرف الوقت، وماهي إلا ثوان، سمعت صوتاً غريباً يشبه صراخ الموت، انعطفت المبنى بشكل غريب، وسحبني معه للخلف بشدة، وأنا أقاوم قبضته القاسية، بإبعاد جسدي عنه، لبدأ بعدها اهتزاز جنوني للأشياء (الله أكبر). صرخت أناادي محمد وأمجد، اللذان استيقظا بسرعة، وقفا معاً بنفس اللحظة وهما ينظران لي مذهولين.

- وأنا أردد تحركوا بسرعة، يجب أن نخرج بسرعة، لم أكمل جملتي حتى سقطت المرأة في الغرفة، وتعاليت أصوات تمزق البناء والجدران التي لا تنذر بشيء إلا النهاية.

نظرا إليّ وكأنني قبطان تلك السفينة، كان عليّ التفكير بسرعة ما الحل أين أتجه؟!

لم يخطر لي شيء سوى تلك الكلمات التي جمعتها ذاكرتي مسبقاً من أبناء تلك المدينة، أن هذه الأرض زراعية لا تصلح للبناء، ومعظم الأبنية فيها مخالفة، وأي اهتزاز قوي للمبنى ينبئ بحدوث كارثة.

إنها الكارثة حقاً، لم يكن لدي متسع من الوقت للتفكير أو الوداع، لا وقت لشيء سوى الهرب، صرخت بأعلى صوتي اركض، أخرجت غطاء لرأسني وأنا أردد أركض بأسرع ما يمكنكما.

فتح ابني الباب مسرعاً وقف ليرتدي شيئاً بقدميه، صرخت فيه لا وقت لارتداء الأحذية، اركض، فقط اركض.. كانت الحجارة تتساقط ويملأ الغبار المكان. كنا نضع أقدامنا على الدرج، نظن أننا وصلنا، يتأرجح المبنى، وتنزلق الأرض وتهتز، ونجد أقدامنا على الفراغ. ليزداد الأمر رعباً مع وصولنا للطابق الثاني وانقطاع الكهرباء، وازداد شعورنا بالخوف مع الظلام وتدافع بقية السكان في النزول على الدرج، والكل يصرخ وينادي، كل ما حولنا كان ينبئ بشخّ فرصتنا بالنجاة، والخروج من هذا البناء المؤلف من اثني عشر منزلاً يصارع سكانها لأجل البقاء.

كان المجهول يطوف المكان، وكان ابني الصغير يركض قبلي والكبير بعدي نسابق الموت. ومع كل خفقة لقلبي أصرخ متسائلة محمد هل أنت خلفي؟ فلا وقت للالتفاف.

أتلقي الإجابة: نعم أنا خلفك لا تخافي أُمي. أشعر بارتجاف صوته.

وأنتبه أن الزدحام جرف أمجد بعيداً عني، فقد كان صوته يأتيني من بعيد وهو يصرخ أُمي.. أُمي.

لأحت لي ملامحه بين الزحام وغيوم الغبار، تمنيت من الله ألا تكون تلك نظرتي الأخيرة. واستجمعت ما تبقى من صوتي أنادي عليه، أركض أمجد أنا معك وخلفك لا تخف أركض بسرعة سنلتقي في الخارج، قل (يا رب) وابتعد عن المبنى، اذهب للطرف لتز.

استمررت أذفعه بصوتي حتى وصلت أسفل الدرج، بقي لي قطع المدخل الطويل الضيق الذي لا يتسع سوى لشخصين، ومع كل خطوة فيه كان يزداد الأمر صعوبة، فالدرجات المكونة فيه سقطت على الأرض، قفزت فوقها، وتجاوزت كل ما يسقط من أشياء، وخرجت لاهثة أبحث عن أمجد لأسمع صوته يشق الظلام يناديني، تبعثُ صوته وضممته، أحسست كأنه ولد للتو.

التفت لأتأكد أن محمد ابني الأكبر خلفي، لم أجده، عاودت الدخول للبناء أنادي عليه، عله يجيبني، كان الناس يتدافعون ويدفعوني، وصوتي لا يصل إلى مسمعه. شعرت أنني سأفقد، سوف أجده أرجوك يا الله ساعدني. لن أنجو وحدي، لا أريد أن أنجو وأتركه في الداخل.

رأيتَه يخرج من بين الزحام كنزته الزرقاء اللون كانت كافية لأطمئن، ركضت نحوه ألامسه، لأتأكد إنه حقيقة.. نعم حقيقة.

وأردد بخوف: هل أنت بخير، أرجوك قل لي إنك بخير. قل لي إنك أنت.

كنت أعصره بقوة دون أن أشعر، حيث تسابقت مياه الأمطار ودموع

عيني ليحجب الرؤية عني.

قال لي: اهدئي أنا معك، وبدأ يتعد ويعدني معه عن المبنى نحو الطرف الآخر، وما أن وصلنا حتى همّ بالسجود يفترش الأرض الغاضبة وهي تتأرجح، تضحّ أمطار السماء التي تحولت لبركة ماء موحلة، وصوته يعلو، يا رب أنقذ الجميع وصاح أجد مع صوت أخيه والقطعة.. يا الله أنقذ القطعة.

كان صوتهما كاف ليجدنا زوجي، وهو يتمتم شاكراً لله حتى غاب صوته.

خرج جميع السكان برحمة من الله وأعجوبة حدث عنها كل من رأى المبنى فيما بعد. وكنا نحن سكانه ننظر إليه عاجزين نراقب تداعي الجدران، والأرض تموج تحت أقدامنا، والرعد يقصف فوق رؤوسنا، واشتدّ المطر، والبرق يضيء وجوهنا الشاحبة ليزيد الأمر رعباً أننا استطعنا رؤية ذلك المنزل يسقط.

أصابني الهلع وأنا أنظر لتلك الشرفة التي رتبته قبل فترة قليلة، وهي تبصق ما عليها من أغراض وتلقيه بقوة، وكان صوت الحطام وضجيج سقوط الحجارة كافياً كي أتمنى لو كنت صماء حينها، أو لو كنت غارقة في كابوس بانتظار أن يوقظني أحدهم.

مرّت حوالي ساعة ونصف ونحن حفاة تحت المطر، كنت أرفع إحدى قدمي وأبدل بينهما لأخفف عنهما صقيع الأرض.

أتى أحدهم وخلع معطفه ورماه فوقي، ولا أعرف من أين جلب لي زوجي حذاء غير متناسق ليخفف عني ارتجاف جسدي، نظرت للحذاء وأنا أقول: لن ارتديه وولداي حافيا القدمين، أعطيته للصغير، لكنه بدوره أعطاه لأخيه، وأعادته محمد لي. دار الحذاء بينا ولم يستطع أحد منا

لبسه وترك الآخرين حفاة، ألقيناه جانبنا، علّ أحد غيرنا يجده.

كنا من المحظوظين أن خرجنا سالمين جسدياً، أو هكذا ادعيناه، فذاكرتنا بقيت هناك، وبقينا نحتال عليها، وعلى ما فقدناه في المنزل من الصور التي تلاشت وأشياءنا المكونة.

كنت أمل أن رحلة البحث عن منزل لن تطول كما سابقتها، فأنا لم تكن الخيمة مأمني كما فعلت للكثير، كنت بحاجة لأشعر أن هناك جدران آمنة، وأحاول قسر ذاكرتي على أن تحتفظ بالصور الأجمل للمنزل. لم أكن لأصدق أن كل تلك المساحة للكرة الأرضية عاجز عن أن يكون لي فيها بيت يأويني، وأنها قادرة على أن تبعثرنا مرة أخرى، لم يكن بالأمر السهل علينا نحن العائلة الصغيرة، أن يبقى كل منا في مكان بعيد عن الآخر.

استجمعت قواي لبداية جديدة والتحقت في العمل، وللمفارقة كان مع الناجين من الزلزال، لم يكن سهلاً أن أكون في فرق المساعدة وأنا منهكة، شحذت ما تبقى مني، وأخذت أقدم اللطف والصبر، الذي كنت بحاجة، فالقلوب مكسورة، ورائحة الموت تملأ المكان، والمصاب جلل.

حين أفكر في عملي أظن أنني قطعت شوطاً، فكنا نعتقد أنفسنا نضمد جراح من حولنا، لكن فعلياً عندما تعطي أنت من سيّسفى، العمل شفاء لذاكرتنا المتعبة.

فجر مظلم

أمنية حسن

ترى هل يمكن للألم أن يكتب الحدث المفاجئ، بعد أن أصبحت الكلمة والحروف كالجبال، وشُلت قدرتنا على النطق والتعبير؟ مدينتي الصغيرة عاشت يوماً لا.. ربما لحظات، تحت صدمة زلزال لم نألف حدوثه، نحن الذين عشنا هول الحرب لم نتوقع أن هناك كوارث أبشع وأشنع مما تخلفه الحروب عبر العصور. عائلات تنوح تحت الأنقاض، ومئات الجرحى مزق الألم حناجرهم مثلما مزقت شظايا الإسمنت أجسادهم.

لم أكن أقوى على أن أتحمل مشهد المدينة التي كانت واقفة وشامخة كشموخ الجبال، تحولت كتلة من ركام. إنها أقل من ثانية أطاحت بالبيوت في الحارة الفوقانية في مدينتي جنديرس. أكاد أجزم حين ترى المشهد ستعتقد أنك أمام لوحة لخيالات بيوت شاحبة، تلف لونها وصارت غبار.

كان الجميع يبكي ويصرخ، الصغار الكبار النساء والرجال تختلط الأصوات معاً، لتعلن العجز عن تقديم أي مساعدة، كنت أشعر أن الموت لا يريد أن يعتقنا ولا يعرف من أين يفترسنا. هو فقط يرغب في قضمنا أحياء حتى نصبح جثثاً مقطّعة! ماذا فعلنا كي نستحق كل هذا الكم من الألم؟!

لا شيء نقوله. ولا أحد يستحق كل هذا الوجع.. من أين نبدأ؟ أنبدأ من العناق الأخير؟ أم من سقوط الجدران، في ذلك الفجر من شهر شباط الذي لم يكن كباقي الأيام، كان حالك الظلمة، ويضجّ بالدمار.

استيقظت على صوت سقوط الجدار الخارجي لبيتي، وأصوات الحيوانات وصوت المطر والرعد المرعب، كان كل شيء يهتز من حولي. هرعت مسرعة إلى غرفة والديّ وأمسكت يد والدي المريضة بقوة وجلست بجانبها وأنا أنظر إلى الجدران، واللوحات تهتز وتتساقط. صوت ما تحرك في سقف الغرفة رفعت نظري كانت المروحة تنزع من أوتادها، وأمي

تصرخ ابتعدى ستسقط فوقك.

لم ندرك حينها أنه زلزال كنا مستغربين من هول وقوة المشهد، هل هي النهاية؟! كان لساني متجمداً في فمي، لم أنطق بكلمة، وصوت أبي وأمي يعلو بالتكبيرات إلى أن توقفت الأرض عن الحركة. نظرنا حولنا كأن حرباً وقعت في الغرفة، كل الأشياء مرمية ومحطمة على الأرض، والجدران متشققة. وصراخ أخي يملأ المكان وهو يقول: هيا نخرج، أسرعوا، الجدران الخارجية سقطت إنه زلزال!

دخل الرعب إلى قلبي كان كل اهتمامي أن يخرج والدي، قبل أن يسقط علينا سقف المنزل. أمسكت يد والدي المريضة، وخرجنا جميعاً حفاة بخطوات ثقيلة، ندوس حبات المطر المتساقط بغزارة، ركض والدي باتجاه السيارة، شغل ضوءها لينير الطريق أمامنا. جلسنا بالسيارة وابتعدنا عن البناء خوفاً من سقوطه علينا. كان الجميع يرتجف، لم أكن أعلم، أهو من البرد أم من الخوف؟! بدأت أصوات سيارات الإسعاف تملأ الشوارع لتبعد البشر عن طريقها. وكانت الصدمة تعتلي وجوهنا، فنحن لا نعرف ما هو حجم الكارثة، ونتوقع أن حارتنا لن تصاب بأذى كبير، فجميع المنازل من طابق واحد.

رأيت أختي تسرع نحونا وهي ترتجف وتبكي، نظرت إليها مستغربة ما بها لماذا تبكي؟ ما زلت لا أدرك ما يحدث حولي. بدأت أختي بعناقنا بقوة وهي تقول الحمد لله إنكم بخير، وتخبرنا أن جيرانها تهدمت بيوتهم صاروا تحت الأنقاض. تبالغ ريقها وتكمل جميع الأنباء العالية قضى عليها الزلزال، ماتوا جميعاً.

تركنت أختي عند والدي، وهرعنت مسرعةً إلى غرفتي، أحضرت هاتفي لأطمئن على أصدقائي وأقاربي. لم أستطع الاتصال، لا توجد شبكة،

ركضت إلى سطح المنزل وقدماي ترتجف شعرت أنني أتسلق درجاً لبناء عال. وصلت وأنفاسي متقطعة لأرى ذلك المشهد كل شيء تغير وكأنني أعيش في مدينة أخرى أين مئذنة الجامع المقابل لبيتنا؟! أين الأبنية العالية ذات الزخارف، أين ذهبت، لم أكن أراها، هل سافرت أم نامت؟

رفعت يداي للسماء وبدأت أصرخ: يا الله ماذا حصل ماذا حلّ بمدينتي؟ وبدأت دموعي تنهمر وتتساقط، وأنا أرتجف، شلّني الخوف لم أعد قادرة على الحركة، أصبحت عاجزة أمام هذا المشهد الحزين والكئيب. سحبت نفسي نحو قضيب حديدي يحمل منشئ الغسيل، أمسكت به، جلست قربه لأستعيد بعض قواي. كنت مصرة على معرفة ما حلّ بالبشر، أصدقائي، معارفي، أقاربي. وبدأت تتوارد الأخبار مع عودة الشبكة، أخبار سيئة مؤلمة كلها فراق وفقدان وحزن.

وبخطوات ثقيلة متشنجة نزلت عن السطح وجلست مع والدي وأخي وزوجته وأولاده، بعد أن ذهبت أختي إلى بيتها، بدأنا نسمع الأخبار، الكثير من زملائي المدرسين، وأصدقائي ومعارفي، وأقاربي، بقوا تحت ركام منازلهم حتى فقدوا حياتهم. عائلات بأكملها فقدناها. ومع كل خبر تدمع عيوني، وأكد أختني، وكالغريق الذي يتعلق بقشة النجاة تعلقت بقصة الأطفال الأحياء العالقين بين حجارة الأبنية الذين ينظرون بعيون صغيرة يملؤها الرعب والألم إلى فرق الإسعاف، وينتظرون إنقاذهم، ومن بينهم آله التي لا يتعدى عمرها الخمس سنوات، التي خُبست مع أخيها الصغير بين حائطين، كان المسعف يحدثها ليمنحها الأمان.

لا أعرف لماذا كنت أراقب نظرات والدتي ووالدي، وأتابع القلق في عيونهما، وأشعر بأننا عاجزون، وكأن هذا الزلزال لم يأت ليرينا حجمه، وإنما جاء ليرينا حجمنا، هي ثوان جعلتنا نشعر بضعفنا وقلة حيلتنا،

وندرك ربما للحظات قوة الموت والنهاية، وكذلك ندرك أننا أحياء ويمكننا الاستمرار بالأمل.

ذاك الأمل جعلنا نتابع العمل، لم أقف مكتوفة الأيدي أمام هذا الحدث المفجع، فكرتُ بمبادرة تطوعية مع صديقاتي المعلمات في المدرسة التي نعمل بها، نستهدف بها الأطفال والتلاميذ الذين انقطعوا عن التعليم بسبب الضرر التي لحقت بالمدارس لتتعطل بذلك العملية التعليمية ضمن المدينة التي أصبحت منكوبة، بل أنها تسمى مدينة الزلزال.

الفكرة الأولى كانت التواصل مع التلاميذ والاستمرار بتعليمهم وتقديم الدعم النفسي لهم ولذويهم ضمن الإمكانيات والموارد المتوفرة لدينا، وأن نزورهم بشكل مستمر ونطمئن عن أحوالهم، وقمنا بتوزيع الأدوار بيننا، بدأنا بزيارة طلابنا الذين يقيمون بدارتنا، لاقى الأمر استحساناً وترحيباً من الجميع. وتوسعت الدائرة حيث أنهم أخبروا جيرانهم ومعارفهم ليستفيدوا من الخدمات التي نقدمها.

انضم لفريقنا بعض أهالي الطلاب فالكل أراد المساعدة وتقديم ما يقدر عليه من خدمات، رافقنا والد إحدى الطالبات بسيارته، زرنا التلاميذ في المخيمات ومراكز الإيواء التي تأسست بعد الزلزال. وشرحنا لهم عمل المبادرة، كنا نقدم بذلك خدماتنا كل بحسب حاجته، بداية كان الأمر غير منظم لكن سرعان ما قمنا بوضع خطة أسبوعية للعمل هوّنت علينا الأمور بالمتابعة.

وفي اليوم التالي بدأنا بتنفيذ الخطة الموضوعية واقتصرت مبادرتنا ببادئ الأمر على تعليم ودعم نفسي، معتمدين على الأهالي في التنقل بين الحارات والأحياء صباحاً وكنا نتواصل معهم عند توفر

الانترنت مساءً. استمر عملنا التطوعي هذا قرابة أربعة أشهر، بعدها تم افتتاح مراكز تعليمية مدعومة من قبل المنظمات الإنسانية لنقوم بعرض خدماتنا عليهم ومن ثم الانضمام إليهم.

حققنا بذلك قصص نجاح كثيرة أبرزها تخفيف مصاب الناس الذين فقدوا أبناؤهم بتلك اللحظات الأليمة. أضاف لنا العمل التطوعي الكثير من المهارات والخبرات التي عززت التواصل والتآلف والتماسك في المجتمع.

شعور مزدوج

عهد العربي



بعد ثمان سنوات من الحرب واعتياد أصوات القذائف وإلفه رائحة البارود، وتشجيع جنائز أحبائنا التي شيعنا معها أجزاء من أرواحنا، أصبحنا لا نهاب الصوت. نحن الذين قضينا طفولتنا نجمع الأشلاء بدل أن نجمع الزهور، دُفنت أطلامنا في بلادنا. تهجرنا قسراً لنكمل ما تبقى من الحرب ومن عمرنا مهجرين.

رسمنا وجهاً باسماء في غربتنا، وارتيديناه لنواجه بشاعة العالم أو لتقبل ما حولنا دون أن نلقى ذرة شفقة من أحد.

وبعدما انتقلنا إلى أكثر من منزل، أتى أخيراً وقت الاستقرار بمنزل مبارك. كان منزلاً جميلاً جداً، غمرتني سعادة لا توصف وانشرح صدري له، وعلت وجهي علامات السرور إنه في الطريق الثاني يُطل على الأراضي الزراعية من جهة، ومن جهته الأخرى يُطل على مدرسة ابتدائية إعدادية. اخترت غرفة من غرفه لتكون أمانى ومأمنى وراحة لي، وكما شعرت بالتعب أعود لغرفتي لأسترجع نفسي وقوتي.

لم أتصور في يوم من الأيام أن يكون الشارع مأمنى، وأن يكون الأمان بعيداً عن غرفتي وأركانها التي لي قصة مع كل ركن من منها.

هدوء ما قبل الكارثة

بعدما اتفقت ما عليّ من حفظ وواجبات، حان وقت صلاة العشاء، صلّيت، وجلست مع عائلتي في ليلة من ليالي شباط الباردة. كنت أحاول تدفئة نفسي وعائلتي ملتفين حول المدفأة، تبادلنا أطراف الحديث واسترجعنا ذكريات انقضت، منها البائسة الحزينة ومنها الجميلة التي لا تنسى.

تعاليت أصوات ضحكاتنا، كان كل شيء هزلي، ويثير الضحك، ما دفعني إلى القهقهة وجعل عيناى تدمع لكثرة الضحك، يا لها من ليلة رائعة ملأها إحساس الحب والسلام والفرح ودفء الروح، وبعد أن انتهينا من الأحاديث التي لا تنتهي، ذهب كل فرد منا إلى فراشه ليخلد للنوم، ذهبت إلى فراشي وأنا أتمتم بيني وبين نفسي باسمعة. فرح فريد ملأ كياني لم أعرفه من قبل، كان فيض سعادتي لا يوصف. وضعت رأسي على الوسادة، لكن لم أنم أصابني الأرق صارت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، أصابني القشعريرة، بدأت ضربات قلبي تتزايد شعرت أن ثمة شيء غريباً سيحدث، يا الله.

بدأت أشعر بالخوف، كان الجميع قد استسلموا للنوم، وأنا لازلت مستيقظة، حاولت تهدئة نفسي، وأنا أقول: كلا لا شيء سيحدث إنه مجرد وسواس.

أخذت نفساً عميقاً ورتلت بعض آيات القرآن لكي أهدأ، وأخفيت رأسي تحت الغطاء، وخلدت للنوم. استيقظت واستيقظ جميع من في المنزل في الساعة 4:17 على اهتزاز المبنى، كان البناء يهتز يميناً ويساراً كأرجوحة معلقة في الهواء، مصدراً أصواتاً مرعبة ترتعش منها القلوب.

ومع تزايد الخوف وتسارع نبضات قلبي وتنفسي، جعلتني الأصوات ازداد توتراً، إنها أصوات الصراخ والتكبير التي تتعالى أكثر فأكثر، وصوت الزجاج وأثاث المنزل يتكسر، ويرفقهم صوت آخر لا أعلم ما هو ومن أين أتى! ولكنه إلى الآن في مسامعي، صوت مخيف مرعب لا وصف له.

صرخت أمي بكل ما لديها من قوة، إنه زلزال، صرخت بنا كي ننجو بأنفسنا، لم أستطع التحرك من مكاني للوهلة الأولى، فقد دخلت في

حالة من الصدمة والذهول مما يدور حولي، وسرعان ما عدت لوعيني، تشاهدت، وتذكرت أعمالي وشريط حياتي إنني أرى الموت بعيني، رغم أنها ليست المرة الأولى التي أرى بها الموت ولم أمت.

انتفضت بسرعة من الفراش، ارتديت طقم الصلاة، لم أهتم بمظهري أريد الستر لا أكثر. لم أبه لشيء كان ابن أخي نائماً بجانبني، سحبته من نومه وبداي ترتجفان. اتجهت به نحو باب المنزل كانت أمي وأخي يحاولان فتح الباب الذي استعصى عليهم فتحه، إلا بعد عدة محاولات، تقطعت معها أنفاسنا وتجمد الدم في عروقنا.

خرجت أمي وزوجة أخي من المنزل وهما لا يرتديان شيئاً يستر رأسهما من هول الخوف، تقدم أخي وشدهما نحو الداخل ووضع عليهما بطانية النوم.

انقطعت الكهرباء لم أعد أرى شيئاً سوى الظلام الشديد الحالك، الذي لا أظن أحداً يحبه. كنت ما أزال ممسكة بابن أخي وهو في حالة صدمة وذهول، كان يسألني بهلع عهد لماذا استيقظنا في هذا الوقت، لماذا لا يوجد ضوء؟ أين أمي، أين أبي وتيته وأخوتي؟!

أجبت على أسئلته وأنا أرتجف وأتأتئ، كنت أتلعثم في الكلام، إنه زلزال، الجميع في الشارع، اصمت فقط اصمت، ولا تفلت يدي وانزل بسرعة. بدأت بالنزول درجة تلو الأخرى، وأحاول أن أرى بصيص ضوء كي لا أقع، فلم يعد شيء يساعدني على النزول حتى قدماي تداخلتا ببعضهما، لا أعرف حقاً كيف كنت أمشي.

وصلت إلى الشارع، رأيت أفراد عائلتي، الجميع بخير الحمد لله. وقفت بجانبهم، أنظر لمن حولي بحالة صدمة، كان جميع من في الشارع

مشغولين بأنفسهم، يتعدون عن المباني، كان صوتهم كصوت طنين النحل. أما أنا فقد كنت أقف متييسة، وكأني أصبت بالشلل، (إنه شلل عقلي قبل أن يكون جسدي)؛ كنت فقط استعيز بالله.

برقت السماء، وبعدها أصدر الرعد صوتاً قوياً، ضممت ابن أخي أكثر، لأخفف خوفه، ولكي أحويه من المطر الذي بدأ الهطول بغزارة، لا أنكر إنني أحب المشي تحت المطر فهو رائع ومريح جداً، وأحب التبلل بقطراته التي تزيل التوتر عني، وتنعش روحي رائحته التي تختلط مع التراب بهطوله أول مرة، وأشعر أنه يعيد لي حياتي، وكأني خلقت في لحظة هطوله. ولكن هذه المرة شعرت بانقباض في قلبي فأنا لا أريد رؤية المطر أبداً، كانت كل قطرة مطر تنزل عليّ تشعرني بأن أحداً ما يرشقني بالحجار، فكل قطرة مطر أثقل من التي قبلها، أما رائحته فقد كانت مختلطة برائحة الموت والحزن.

يا الله برّد قارص جداً، والجميع حفاة بئسين يصارعون الأرض المبللة والطين، لا يملكون سوى التضرع إلى الله.

صباح في الطرقات تحت زخات المطر والهزات المتتالية.

حان وقت صلاة الفجر، صلينا تحت المطر، وبكيت كثيراً بكاءً مريراً وكأني طفلة صغيرة تائهة. شعرت بأنني غريبة في هذه الدنيا، لا شيء يهدئ من قلقي وخوفي. أريد الهروب من الواقع لم يعد بيدي حيلة لأخفف أثر ما يحدث.. أتمننا الصلاة.

انتظرنا الشروق، توقفت الأمطار، أغلب البيوت تهدمت، وذهبت الممتلكات، وذهب التعلق بالدنيا أو حب الدنيا وزينتها. فقد كان السعيد منا هو من وجد نفسه وأهله بخير.

زلزال رهيب ضرب المدينة، كل الناجين تحدثوا عن شدته وقوته، ضرب المنازل والمحلات والمباني كل شيء قد تضرر.

رأيت شخص يسكن في حيّنا يدعى أبو الليث، يقف أمام منزله ينظر إليه ويتحسر، متذكراً الجهد والوقت والمال الذي أنفقه في بنائه، وهو يشعر بغصة في قلبه، وقلبه ينفطر ألماً، صدره يختنق وعيناه تدمع، كان ينظر إلى أثاث منزله الحالك ويتذكر أياماً جميلة قضاها بين أركانه وزواياه.

تهادى إلى الأرض جالساً، وأصابه يأس قاتل، انهارت أعصابه أحس باختناق وحرارة، كاد رأسه أن ينفجر غضباً وحنناً. ودّع منزله عند الشروق ملوحيًا، ومن يومها سكنه الحزن وصار زمانه في غروب.

شعرت به، فأنا أكره الوداع. ولا أحب تلك اللحظات التي أغادر فيها أشياء تسكن روحي، يؤلمني قلبي ودائماً أخفي مشاعري لا أحب إظهار ما أشعر به، لكن في تلك اللحظة لم أتمالك نفسي، بدأت دموعي بالتساقط، وكانت روحي أيضاً تبكي، إنها لحظات مهيبة لا يستطيع إنساناً مقاومتها.

وبعد ليلة قضيناها في المخيم ظننتها نهاية للخوف والمعاناة، إلا أنها كانت بداية جديدة لمعاناة مختلفة ومديدة أنا وأمّي وزوجة أخي والأطفال في حالة من عدم الاستقرار وعدم الإحساس بالأمان والذعر. أصبحنا عرضة للقلق المستمر والهاجس أن هناك زلزال وهزات أخرى ستحدث، بدأت تراودني مشاعر سيئة مخفية تسكن في قلبي لا أحد يراها ولكن تظهر في ملامحي وارتجافي.

جاء الليل وحان وقت النوم بدأت بمدّ الفراش التي جلبها لنا أخي

أمسكت الغطاء نظرت إليه باشمئزاز كلا.. كلا.. لا أريد النوم هنا. كنت أريد العودة للمنزل ولو سأموت هناك لا يهمني.

استلقينا جميعاً، وضعتُ أطفال أخي بالمنتصف بيني وبين أهمهم، كي أجعلهم يحسون بالأمان والاستقرار أطفالنا بصيص الضوء لكي ننام، ولكن أشعل التفكير شموعه. جاء الصباح ولم أستطع النوم، كانت عيوني ذابلة ناعسة تدلّ على الاستسلام والرضوخ إلى هذا الواقع. مضت عدة أيام شرعت الحياة بالعودة إلى طبيعتها مع بعض الهزات التي أصبحت جزء من حياتنا اليومية.

وبعد الجلوس لوحدي والتكلم مع ذاتي بدأت بمراجعة نفسي، كنت بحاجة مستمرة لأن أتذكر بأنني لست وحدي المكروبة، لست وحدي التي أعاني وأكابد في طريق سيء غير مريح. وفقحت أني ما وُجدت على هذه الأرض إلا لغاية، وأن غايتي لن أدركها بخيالي واستسلامي لهذا الواقع المميت، إنما سأدركها بتعبتي واجتهادي وصبري على وعناء الطريق الذي قُدّر لي أن أسعى به.

وبعد جهد ومثابرة حصلت على شهادة الثانوية التي أتت (عوض من الله) لتنسيني ما مررت به وتشعرني بالسعادة والامتنان ولذة الوصول. لم أتوقف عن الدراسة رغم ما مرّ معنا في عامنا الدراسي، نجحت وحصلت على الشهادة الثانوية وتابعت مسيرتي في اختصاص التمريض، لتكون خاتمة عامي ورشة تعليم الكتابة لأصل إلى هنا وأروي لكم ما حصل. وأنه بعد أن كُبلت أجنحة العصفير، أسدلت المدينة ستار الزلزال لتواصل حياتها الطبيعية.

أسيرة ليلة مرعبية

ريم حسين

لا أعلم من أين أبداً، عائلتي تتكون من أمي وأبي وأخي وزوجته وأطفالهما الأربعة، فهذه العائلة السعيدة للأسف لم تعد هي نفسها الآن، لأنه بعد الزلزال المدمر بعشرة أيام فقط فقدنا سند العائلة ونبع الأمان أبي بنوبة قلبية في المخيم الذي لجأنا إليه بعد كارثة الزلزال التي حلت بنا.

لم يكن لدي حينها متسع في قلبي ليتحمل كل تلك الصدمات التي فطرت قلبي، كانت الأيام أقسى مما أستطيع احتماله.

في ذاك اليوم من فصل الشتاء البارد، استيقظت صباحاً لأذهب لمعهد الشريعة الذي أدرس فيه. كانت بداية اليوم جميلة بالنسبة لي، كانت الفرحة لا تسعني، لقد تبقى لي صفحة واحدة وأسبر الجزء الأول من القرآن، أسعدتني كثيراً نظرة الفخر في عيون أبي وأمي رغم أنني ما زلت في بداية مشواري.

عدنا للمنزل كان كل شيء طبيعي وهادئ لم يكن هناك أي شيء مختلف، انتهى النهار بشكل عادي، وبطول الليل سكنت كل الأصوات، أصوات الأطفال، التلفاز.. كان الهدوء جميلاً جداً، إذ يسمح ليّ بسماع صوت المطر الذي أحبه. اجتمعنا كنا بالقرب من المدفأة نتبادل أطراف الحديث بين المزاح والضحك من أمور الحياة. وما أن انتهت سهرتنا اللطيفة حتى ذهب كل منا لغرفته ليرتاح من تعب النهار ويخلد للنوم.

فتحت عياني في فجر ذلك اليوم على شيء غريب لم يسبق لي أن عشته من قبل، لم أفهم ما الذي يحصل، بل كنت أشعر أنها كارثة، كان المنزل يهتز يميناً وشمالاً، يميناً وشمالاً. رميت غطائي، وقمت مسرعة من فراشي، وأنا في قمة الرعب. ونظرت نحو زوجة أخي التي تنام بالقرب مني، فهي كذلك استيقظت خائفة بشدة، تبادلنا النظرات دون

النطق بحرف كانت الصدمة على وجوهنا تتكلم.

خرجنا من غرفتنا إلى غرفة أهلي، وجدنا أمي مستيقظة مثلنا، ولا تدرك ما الذي يحصل حولنا، أبي فقط كان يصرخ بنا: (جيبوا الولد واطاعوا بسرعة هاد زلزال).

كنت في أقصى مراحل الصدمة كأن عقلي قد توقف عن التفكير، كانت الأضواء قد انطفأت ليحتل الظلام المنزل، ركضنا لغرفتنا لنجلب أولاد أخي النيام، ونحن نتحسس الأشياء في طريقنا لنستطيع الدخول لغرفتنا من شدة العتمة، سحبنا الأطفال للخارج. لكن ابنة أخي التي تبلغ من العمر سبع سنوات انهارت أعصابها، لم تستطع الحراك من مكانها حملتها بصعوبة، كن ثلاثتهن تبكين بخوف، أبي وأمي وزوجة أخي أتوا ببقية الأطفال.

توقفنا جميعاً، رغم استعجالنا، عند باب غرفة الجلوس الذي يطل على فسحة المنزل في الخارج.

كان منظراً مربعاً جداً، مهما شرحت لن أستطيع التعبير لأشعركم بما شعرت به، حيث كان كل شيء من حولي يهتز، الحجارة تتساقط حولنا وعلينا.

ارتفع صراخي مع سقوط حائط المنزل الخارجي، سيطر عليّ الرعب، وفقدت الأمل للحظات بقدرتنا على الخروج أحياء، حضنا بعضنا البعض وخبأنا الأطفال بيننا كي لا يتأذى أحد منهم.

كانت السماء ترعد وتبرق والمطر يسقط، والأرض تحت أقدامنا لزلالت تهتز وأبي يردد: (تشاهدوا.. تشاهدوا، يمكن نموت)

كنت أردد كلمات الشهادة، وأقول في نفسي: يا إلهي أيعقل أن هذه النهاية؟ أسأموت وأبقى تحت التناقض أم سأنجو بمعجزة من هذا الزلزال؟!

كان كل من في المبنى يركضون إلى الشارع خوفاً من سقوط المنازل فوق رؤوسهم، وصوت بكاء الأطفال وصراخ النساء وتكبير الرجال جعلوا المشهد أكثر رعباً، هدأت الأرض لمدة لحظات فقط، لكن الناس استمروا بالركض هنا وهناك، بعضهم نسوا أولادهم في المنازل، وأسرعوا لجلبهم، وبعضهم كان يبحث عن مأوى للاختباء من البرد والمطر. أما نحن فهذه اللحظات كانت كفيلة بأن نحاول الخروج من المنزل، لكن باب المنزل الرئيسي كان مغلقاً بسبب الأحجار التي سقطت من المبنى وسدّته، أسرعنا جميعاً لإزالة الأحجار والركام بصعوبة، ونحن نتفقد بعضنا. هل تأذى أحد منا؟ هل يوجد شخص ناقص؟ أو فقدنا أحد؟

وحمدنا الله أننا خرجنا لا فاقدين ولا مفقودين.

كنا نرتجف برداً وخوفاً، يتساقط المطر فوقنا بقوة، وأصوات الرعد المخيفة كانت تزيد المشهد رعباً، أدخلنا أبي لغرفة الحارس التي كانت أمام منزلنا، غرفة صغيرة جداً تكفي فقط لشخص واحد، لكن للضرورة أحكام، احتمينا تحت سقفها من البرد والمطر، وكان معنا بنفس الغرفة بعض النساء، كنا بالكاد نتنفس.

صرّ بنفسي أن أبي أدخلنا للغرفة وبقي واقفاً يحرسنا تحت البرد والمطر، قلت له: وأنت ألا تخشى على نفسك من البرد والمطر

قال: أن تكونوا أنتم بأمان، خيراً لي من الدنيا وما فيها

شردت وأنا أنظر إليه من باب الغرفة، والمطر يغطيه ويرتجف برداً، كان

حنانه غلاب لم يفكر بنفسه أبداً. قطع عليّ شرودي زلزال آخر، عاد الرعب إلى قلبي مرة أخرى، وعادت أصوات الناس والصراخ من حولي وأنا أصرخ وأردد اللهم سلم، يا رب ارحمنا برحمتك.

هدأ الزلزال كنت أشعر كأنني خرجت من معركة أو من حرب، كنت خائفة لأنني أعلم أن هذه المرة ليست كالذي عشناه خلال 12 سنة من الحرب المتواصلة والتهجير والحصار والقصف اليومي. في الواقع خلال 12 سنة من الحرب لم أشعر بربع الخوف الذي شعرته خلال أقل من نصف ساعة أثناء الزلزال.

بعد ثلاثة أيام من المبيت خارج عفرين عند أقاربنا، عدنا لعفرين، وأخذنا أبي للمخيم في ملعب، كان قريباً بعض الشيء من منزلنا. كان هناك عشرات العائلات النازحة معنا في الملعب. بنى أبي لنا خيمة عشنا فيها مؤقتاً، لنضمن انتهاء الهزات الارتدادية.

بعد مرور أسبوع على نزوحنا للمخيم، استيقظت على صوت أمي وأبي وهي تقول له: اخرج لعلك تستطيع التنفس قليلاً. خرج أبي ارتاح قليلاً، ثم دخل للخيمة قال لأمي: أرجوك خذيني للمستشفى أشعر أني أختنق.

أخذته أمي، بعد ساعة دخلت وهي منهارة من البكاء وتصرخ (ريم أبوكي مات)

في البداية لم أبدي أي ردة فعل. لكن بعد ثوان صرخت بأعلى صوتي وأنا أبكي (أمي أكيد عم تمرحني)

قالت أمي لا قومي وارتيدي ملابسك واذهبي معي للمستشفى بسرعة. ذهبنا لكن فات الأوان.

رأيت أبي جثة هامدة على التخت في المستشفى، جلست على ركبتي وانا أصرخ وأبكي وأقول له: رحلت باكراً يا أبي أنا بحاجة لك، استيقظ أرجوك لا تتركني وحدي، لكن عندما نظرت لأمي شعرت أن عليّ أن أؤجل انكساري وانهياري. وأكون سنداً لها، ذهبت وحضنتها وأنا أردد في أذنها (قولي الحمد لله، بابا ارتاح هيك أكثر، وابكي، هو يستحق أن نبكيه)

انتهت مراسم الدفن، تركت أبي وأنا أعلم أنني لن أراه بعدها أبداً.

كان شعور الانكسار يأكلني من الداخل، شعور أن سندي قد ذهب ليس بالشيء الهين. لقد كنت المدللة لديه التي ترتمي بأحضانها ليلعبها وكأنها طفلة صغيرة.

عدنا للمخيم ونحن نحاول استيعاب الموقف، بين الزلزال وبين رحيل أبي، فإن الصدمة ما تزال قاسية عليّ، ولا أقوس على تحملها، إذ زادت الأعباء عليّ بعدها، وبدأت حصل مسؤوليات فاقت طاقتي.

تلك الأيام جاءت لتحمل لي بين طياتها قساوة الموقف والمعاناة والتي غيّرت كل شيء في حياتي، بدأت بسلب كل ما أحبه، أوله كان أبي وبعدها كان انقطاعي عن المدرسة وتركبي لدراستي التي كانت متنفسي. فبسبب الظروف القاسية التي مررنا بها، صرّنا مضطرة للاعتناء ببنات أخوي الأربعة ومراعاة كل ما يريدونه من طعام وشراب ولباس. ففي كل صباح تذهب أُمي إلى عملها لتعود آخر النهار متعبة، وأدير وحدي كل الأعمال المتعلقة بهن وبالمنزل.

كنت لهم الأم والعمة والأخت الكبرى، ألاعبهم تارة وأضحك معهم أخرى، وفي بعض الأحيان كنا نبكي معاً لترتمي جميعاً بحضن أُمي آخر النهار.

كابوس

زهرة الرمضان

واقّع أم منام، مشهد تفاصيله مؤلمة ومرعبة. أصوات وتكبيرات، صراخ ونداءات استغاثة. أمطار الشتاء لم نعتده. شوارع وحدائق مليئة بالناس.

أسئلة كثيرة، ماذا حدث؟ من أصيب؟ أين نذهب؟ نريد الاطمئنان على..

كان هذا الكلام الوحيد الذي تسمعه.

اسمي زهرة عمري ٢٤ سنة، متزوجة أم لطفلين، أسكن مع عائلة زوجي في بيت أرضي ببناء مؤلف من أربع طوابق، بعد نزوح قاس من مدينتي الجميلة معرة النعمان، التي قضيت فيها أجمل أيام حياتي كبرت وترعرت بها. كانت رحلة قاسية تعددت بها محطات النزوح من منطقة لأخرى بحثاً عن الأمان إلى أن استقرينا في مدينة عفرين.

كان يوم كباقي الأيام يمضي من غير جديد، فقط البقاء على قيد الحياة، وتجديد الأمل والأحلام بمستقبل أفضل وجميل نسكن بها ما بقي فينا من روح، نستيقظ بها على صباح يوم جديد.

أما صباح يوم الاثنين لم يكن طمأناً إطلاقاً، بل صاعقة ومشهداً مرعباً وفاجعاً. وبينما نحن في فراشنا نائمين جميعاً في غرفتنا الصغيرة الدافئة المزينة بالأوراق الملونة اللامعة، وصور الأزهار والطبيعة تملأ الجدران، استيقظنا جميعاً على صوت قوي ومرعب حتى الأطفال بدوا خائفين منه، وبدأت الأرض ترتعش وتهتز تحت أقدامنا.

ازداد خوفنا مع انقطاع التيار الكهربائي.

كان علينا الانتقال من هول الصدمة إلى حقيقة الواقع وقفنا سريعاً وخرجنا من غرفتنا إلى رواق المنزل، أمسكت أصد أطفالتي وزوجي أمسك الطفل التخر لتهدئة خوفهم.

كانت صرخات التكبير والتوحيد تملأ المنزل مع اهتزاز الأرض بقوة. وقلوبنا الضعيفة تهتز معها، التف حولنا والدا زوجي وأخته الصغرى ليانا، والأرض تتزلزل تحت أقدامنا ونحن نسير إلى باب المنزل بأخر الرواق. لكن كان نظرنا إلى الأعلى لم يفارق سقف المنزل.

حاول زوجي الإسراع بالذهاب إلى باب المنزل لفتحه ولكنه لم يستطع الثبات، وكأنه فقد توازنه بالكامل، بعد ثواني وكأنها ساعات توقفت الأرض عن الاهتزاز وعاد بعض التوازن إلى أجسادنا واستطعنا الوصول إلى باب المنزل،

لنرى الجيران ينزلون من منازلهم التي في الطوابق المرتفعة، مستغلين هدوء الهزة.

بعدها دار الحوار بيننا بصراخ وعجلة فالبعض يريد الخروج والبعض يريد البقاء، وكان الوقت بدأ ينفذ منا، فلم يعد البقاء بالمنزل آمنا.

بدأت بوضع الألبسة الشتوية على أطفالتي ووضعت شيئا على رأسي، لم أكن أشعر بالبرد حينها، كل ما كان يجول في خاطري ويشغل تفكيرتي وجسدي الإسراع بالخروج من المنزل وحماية أطفالتي في الخارج.

كان منظر الناس في الشارع مخيف ومفاجئ وهم منتشرون، بعضهم خرج من غير حذاء، وآخر لبس بنطال قطنيا عليه قميص رسمي وتوشح بربط الحزام الذي ربما رآه في وجهه وارتداه بسرعة من شدة الخوف والهلع، وآخرون خرجوا بملابس النوم.

وماهي إلا لحظات قليلة حتى اهتزت الأرض من جديد، أمسكنا بأيدي بعض وبدأنا بالركض إلى المساحات الخالية البعيدة عن المباني والطوابق المرتفعة. توقفت الأرض، لكن الخوف والرعب يملئ قلوبنا.

شعرت بحوار لا أستطيع وصفه ولا تشخيصه، زاغ بصري وبدأ جسدي يرتجف ويرتعش كما كانت الأرض قبل قليل. ورغم صراخ وصيحات الناس، كنت شاردة بالظلام حينما شعرت بأيدي زوجي تلمسني وتهزني كي استيقظ، وهو يقول لي: قررنا الذهاب إلى الحديقة المجاورة.

لم أكن قادرة على حمل أطفالي وكان صغيري تيم يبكي ويبكي يريد مني حمله، عوضاً عن جده الذي يحميه ويلهيه بحركات يديه. وعند وصولنا إلى الحديقة تفاجئنا لم يعد يوجد بها متسع من كثرة الناس، جلسنا على أطرافها. كانت أنفاسنا تتكلم عما حدث بنا.

لم نعد إلى المنزل يومها، نام الولاد في الحديقة، حاولت احتضانهم لحمايتهم من البرد..

الناس تتكلم عن هول الزلزال واضرارہ. أردت الاطمئنان على أهلي وأخت زوجي المقيمين في محافظة دمشق. تواصلت مع أمي، كانت أمي تبكي خوفاً عليّ لأنني بعيدة عنها،

كل ما مررنا به كان أخف وطأة وضرراً من مدينة جنديرس فوقع الكارثة كان عليها أكبر.

كنت بوقتها أعمل ضمن مشروع الصوف كمشرفة علىعاملات لم أكن أعرف أن ماحكناہ من قطع سيكون من نصيب الأطفال المتضررين من الزلزال، فبعد الزلزال صرت أعمل ضمن فريق يوزع القطع المنسوجة للمخيمات، كما رافقنا فريق يقدم جلسات دعم نفسي للأطفال وذويهم، كنا نساعدهم في الأنشطة الترفيهية للأطفال، كنت أترك أولادي عند جدتهم التي تخاف عليهم أكثر مني لأقوم بعلمي وأنا مطمئنة عليهم.

رغم الألم الذي حلّ بنا كنت أشعر بالفرحة بما أقدم، خاصة عندما أرى الابتسامة رسمت على تلك الوجوه المكومة.

لأعود وأتابع عملي في تضميد الجراح وأخذ الإبر وتغيير السيرومات للناس الذين قدموا من جنديرس للسكن مع أقربائهم في منازل أكثر أمناً.

في كل النوبات كنت جاهزة ومستعدة لألبي النداء

لحظات تحبس الأنفاس وشريط من الذكريات لا ينتهي يمر في مخيلتي حاملاً معه رحلة سنوات من البعد، لا يوجد ما يعوض به المرء من الابتعاد عن عائلته وأصدقائه وأحبابه.

لم يكن بالأمر السهل نسيان مشاهد حفرت قلوبنا، وغيّرت مسار حياتنا، جعلتنا نشعر بقيمة الحب والحنان العطف والرحمة، المسامحة والتواضع والحنين والاشتياق.

رغبة قوية في نفسي أن أخبر جميع من حولي والذين أعرفهم أنني أحبهم وأحبهم جداً.

الخلق

إيمان دياب

في مجتمعي عليك أن تموتي ألف ألف مرة ولكن لا ترفعي صوتك بأنك تريدين الطلاق. في مجتمعي أنت تخربين بيتك إذا طلبت الطلاق، في مجتمعي ولو تحولت لهومياء لا يجب عليك أن تطلي الطلاق.

استغربت صديقاتي حين أخبرتني أنني أريد الطلاق لأنها الثانية لي، أنكرن عليّ ذلك. يجب أن أتحمل، فمن وجهة نظرهن، أنا الفاشلة، والمهم أنه زوج قائلين لي (حذاؤه عند عتبة الباب تكفي)

لكني لم أستطع أن أكون مثلهن أدفن ابتسامتي وحياتي وكل آمالي كي أرضي مجتمع لا يفقه من الحياة الزوجية سوى فراش متعفن.

وفعلاً تطلّقت، ونلت مرادي ونجوت بنفسي وبأولادي. بدأت رحلتي التي رسمت خطوطها العريضة بأني وحيدة متكئة على أخي الذي كان المحفّز الأكبر لي في طلاقني.

سكنت بيتاً صغيراً لا تجد أشعة الشمس منفذاً إليه أهرب من صقيعه إلى بيت أخي أو صديقاتي.

وفي ضوضاء الحياة وكثرة المهام الملقاة على عاتقي، لم أستطع بناء علاقات مع جاراتي، سوى جارة تسكن في الطابق الثالث أعرفها من قبل، كانت دائماً تشجعني على الاستمرار وعدم الطلاق.

مع الأيام باتت علاقتي بندي متينة جداً نصحوا لنبدأ نهارنا معاً، ننزل الدرج معاً، نشرب القهوة ونأكل الطعام معاً. صرنا نعرف كل شيء عن بعضنا البعض، يكفي أن نلمح بعضنا حتى تفهم كل منا ما يجول بخاطر الأخرى.

كنت أعرف أنها منذ خمس سنوات غارقة بالتفكير والهّم، تتنازعها الأفكار

بين النخذ والردّ حول أوضاع النساء وقراراتهن المصيرية. كثيراً ما حدثتها عن جمال الحياة وخاصة مع الأب، حدثتها عن شعور الطفل الذي يرى أباه من بعيد ثم يتفاجأ بأن هذا الأب غير مساره، صار أباً لأولاد آخرين، لأناس يتمتعون بالحقوق ذاتها.

- سألتها ليلة العيد: من جلب ثياب الأولاد.

- نحن: أنا

- لماذا أنت؟

- رأيته في السوق يشتري لها لم يكثرث لأمرنا.

أمر طبيعي ولماذا أنت مستغربة؟!

في كل مناسبة تعذبين نفسك وتقهرين أولادك، وتجبرينهم على النوم، وهم يفكرون بقهر لماذا غير والدكم طريقه حين رأيهم؟!

لماذا يذهب لأخوتهم الذين ينالون حقهم باللبوة، بينما أولادك الذين يتمتعون بالحقوق ذاتها محرومين منها، ألا ترأفين بحالهم؟ أليست قلوبهم رقيقة، لماذا كل هذا العناء؟

- أحبه نعم، أحبه لا أستطيع الابتعاد عنه.

- وحياتك ومعاناتك وروحك؟ وأولادك أين هم من قصة الحب المزعومة؟
الحب يا عزيزتي وصال وعطاء ومسؤولية

- كلما طلبت الطلاق يصبرني وبعديني

- انظري إليّ، أطفالي أسعد من أطفالك، أرحتهم اشتريت لهم الاستقرار

والهناء وهما هم اعتادوا. لكن كانت حياتي وحياتهم قبل الطلاق فرع
أمني لا يهنأ الجلود إلا حين يرى المساجين قد أغمي عليهم.

لا أريد أن أتذكر تصبحين على خير، نامي وأنت تحلمين بالوصل.

الساعة ١٢ ليلاً يرن هاتفني، منتصف الليل الناس نيام، صوت الكاب
وحده يقطع هدوء الليل، حتى الرجال في بلدي لا يخرجون في هذا
الوقت خوفاً من كل شيء، إنها الحرب التي أرخت ستارها ولم تسحب
حتى اليوم.

بصوتها المبحوح المخنوق، قالت ندى: صغيري درجة حرارته عالية جداً
وأكد أجن، أتصل بذلك المعتوه إنه يفصل في وجهي، يخاف أن يكلمني
أمامها ماذا أفعل؟

- ارتدي ملابسك انزلي بسرعة سنأخذه إسعاف

- لوحدنا ؟

- انزلي.. انزلي

انطلقنا وهي تتفادى أن تنظر في عيوني أنا الأرملة التي ما كسرتني
الأيام، ولا البعد عن الرجال

وضعت يدي فوق جبينها، كانت تُعاني من ارتفاع درجة الندم ومن
تسرع خفقان القهر

هدأت من روعها قائلة: لا.. لا تحزني ستسير أمورك بأفضل حال.

دخلنا إلى المستشفى وبين الممرضين سرنا امرأتين وبعد معالجة

صغيرنا خرجنا في هدوء وسكينة، وأنوار الشوارع تتسلط على كمام
القلوب لتظهره.

- ممكن أن نسير

- نعم حبيبتي زال الخطر الحمد لله

- أطلق؟

- ههه

- لا تضحكي عليّ

- كوني طيبة نفسك ولا تكوني جلادها.

الحب.. الحب

هنا وقع نظري على عصا، فقلت لها سأضربك، أخذت تركض أمامي
كطفلة مخنوقة وأنا ألحقها وتقهقه وسط الطريق وأنا أتبعها حتى
انفجرت بالبكاء.

بعد ليلة واحدة (ندى وزوجها)

- طلقني

- لا

- أنا لم أعد أطيق الحياة معك والصبر كله قد نفذ

- اصبري

- أي صبر وأنت من خمس سنوات لا تتعرف عليّ إلا لسويغات يتيمة تكاد تُعد

ولدت ابنا الأخير لم أرك حتى النذان في أذنه وكتفه لأخي، البارحة كاد الصغير أن يموت لولا أن أخذته مع صديقتي ليلاً، أين أنت أين أبوتك أين ضميرك وحبك؟

- كفائي هراء الأيام القادمة أفضل، هل تريدان أي شيء؟

- طلقني قبل أن تخرج

يخرج الزوج الفاشل إلى بيت زوجته الأولى تاركاً ندى التي احتضنته في أقمسى أيامه مع ثلاثة أطفال أكبرهم بعمر الست سنوات وأصغرهم شهر، تلف صغارها في بيتها الصغير الذي لسوء حظها في الطابق الثالث يبعد عن الدرج ١٠ أمتار

وضعت رأسها على الوسادة وهي تبكي أغمضت عينيها، لفت أحلامها ورفض كل من حولها لطلاقها من هذا الرجل الفاشل الذي تلاشت معاني الرجولة والأبوة من كيانه حتى أن عيونه تكاد تنطق فجراً وظلماً ونامت المسكينة.

وأنا أعلم أنهما تشاجرا، لأنه أخرق ينزل الأدراج وهو يرغب، صادفته يومها وأنا أخرج من بيتي وأولادي يقولون لي: ماما هل هذا والد أحمد وخالد

لا أستطع نكران أنني علوت بصوتي نعم هذا أبوهما

لتكن كلمة ابني: ظننتهما يتيمين يا ماما

كنا ننزل الدرج وراءه إلى بيت أخي الذي أصرّ عليّ هو وزوجته أن آتي عندهم، وبالفعل ليلتها نمنا جميعاً أنا وأولادي الثلاثة مع أولاد أخي في غرفة وأخي وزوجته في غرفة ثانية.

صوت على صوت سماوي يرافقه صوت أخي استيقظوا، انقطعت الكهرباء فجأة، اهتزت الأرض من تحتنا، والجدران اهتزت، بدأت أصرخ لا تدخل يا محمود لا تدخل لا يأتي أحد.

خرج أولادي وحصل أخي أولاده. صارت زوجته من الخارج تناديني، لكن سقط الباب أمامي لم أعد أقوس على النهوض، ابني الصغير في حضني وصديقتي ندى أمام عيني وأطفالها الصغار والمبنى وكل ذلك أمامي. صرخ أخي وهو يخلع الباب ويدفع الرمل الذي هزّ من السطح الإسمنتي وكان ١٠ أمتار تحولت لـ ١٠ كيلو مترات، زحفت وأخي يجرنني حتى وصلت إلى فسحة سماوية وقلبي يرتجف، ودموع ابنتي أمامي أغرقت وجنتيها وابني الصغير في حالة رعب لماذا أيقظته فجأة

لم نكاد نتنفس حتى جاء الزلزال الثاني لنخرج مسرعين إلى الشارع نتلقى حبات المطر مع رعب الليل وصوت البكاء، لأصرخ ندى، لم أكن أراها بين الجموع.

تخبرني عن تلك اللحظة

فتحت عيني على صوت سماوي لا تدركه الآذان، وبثيابي الرقيقة دون أن أفكر حاولت أن أحصل ثلاثة أطفال أصيبوا بالصدمة.

لم تُعنها يدها النحيلة على فتح الباب الحديدي الذي صُنع من قلب زوجها. فتحتة وقد كسرت يدها فلم تعد تملك سوى يد واحدة تحمل بها الرضيع وهناك طفلان يبكيان.

تخبرني ندى أنها في تلك اللحظة، كرهت كل ماله علاقة بالرجال.
تقول: نزل كل رجال المبنى وأنا لوحدي أقطع العشر أمتار لأصل للدرج
والكهرباء قطعت والدرج أضى سلاماً طويلاً يطول ويطول، في
منتصفه تذكرت أنني أرتدي ملابس النوم

ماذا افعل؟ هه ليسوا رجال لأستحي منهم، أنهم لا يملكون أرحاماً
فقط

وصلت للطابق الأرضي ولكن هناك خوف من وقوع المبنى كاملاً.

هنا سارت في الشارع لوحدها مع أبنائها والمطر يبلى شعرها
ويتساقط ليمحي كل التثار التي منعتها من الثوران

تصل للحديقة، تخرج نديها لترضع ابنها حليب القهر والخوف والموت،
وتضع يدها الثانية على رأسي ابنيها الذين لم يطلبوا أن يأتي أبوهما
فقد نسيا أن لديهما أباً بالأساس.

ينتبه أحدهم إليها، يأتي ببطانية ليلفها.

هنا تقرر ندى أن تطلع بعلمها أن تضربه بنعلها أن تنزعه من قلبها.

-كيفك؟ أين أنت أنا في أسفل البناية

- أنا في الحديقة

بلمح البصر أصل إليها لا تخافي أنا معك، أخوك ينتظرك هناك بحثاً
عنك لقد أربعتنا.

يحضنها أخوها ويقبلها، ودون أي عتاب يدخلها السيارة مع صغارها

لتهمس في أذني سأخاع.

انطلقت إلى أولادي بعد أن أمّنت عليها مع أخيها، أحضنهم في رحلة
البحث عن بيت، بدل بيتي أخذه الزلزال وأخذ معه قصة زواج فاشل.

على وقع الكارثة

حنيفة حمزة

زلزال السادس من شباط وذكريات الخوف والهلع، اهتزت فيه الأرض بغضب.

لم أنسى ابداً تلك الليلة، ففي الساعة الرابعة وسبعة عشر دقيقة، كان المطر ينهمر بغزارة والجميع نيام، استيقظت أشعر بالعطش الشديد، شربت الماء وعدت إلى فراشي، لم يكن النوم قد لامس جفوني بعد.

خيل لي في البداية أن الفراش يهتز فلم أبالي، لأجده ليس خيالاً، كان البناء يهتز حقاً.

كان صوت الأرض مربعاً ترافقه هزات أقوى، انتابني خوف شديد وصرخت بأعلى صوتي لإيقاظ أولادي. لحظات مرّت أحسستها دهر، قطعت الكهرباء كان الظلام حالاً، أثاث المنزل بدأ يتساقط ويتهاوى كل ما حولي وقع على الأرض، ذهبت مسرعة إلى غرفة الأولاد فلم يوقظهم صراخي الأول..

نهض ابني محمد في عجلة وقال أمي لنهرب بسرعة من المنزل، قلت له: لن يسعفنا الوقت لن نتمكن من الوصول للأسفل، منزلنا في الطابق الرابع، سيقع البناء قبل وصولنا، كدت أفقد وعيي وقتها لدى تفكيري بالأمر.

جمعت أولادي واستندنا قرب عمود أساسي من البناء وطلبت من الله اللطف والرحمة، حتى توقفت الهزة القوية ركضنا بسرعة البرق إلى الشارع خائفين.

كان البرد شديد والأمطار ازدادت غزارتها، وكان الشارع مختلف عما عهدته من قبل، يفرّ الناس هاربين من منازلهم التي كانت الملجأ الآمن لهم.

تلت الهزّة السابقة هزّة أخرى زادت من دقائق قلوبنا، ذهبنا مع أحد معارفنا إلى منزله (بناء عربي) استعدت وعيي واستوعبت ما حلّ بنا.

بدأت بالاتصال بأهلي وأصدقائي لأطمئن عليهم، عرفت من ابن أختي أن الزلزال أوقع بيتهم أرضاً، ولا يوجد معلومات عن أهله الذين كانوا بداخله.

أفكار كانت تأخذني وسيناريوهات تمرّ بي تجعل دموعي تنهمر وأعصابي تنهار، هم يسكنون في مدينة أخرى لا أستطيع الوصول إليهم بسرعة، لكن اتخذت قراراً في الذهاب إليهم.

ذهبت أنا وأولادي إلى سلقين حيث تسكن أختي.

وصلنا لنجد أكوام من الركام للبيوت والمباني المتهدمة والمتضررة بشكل كبير.

لم أجد أحداً سألت عنهم، إن كانوا بخير ليقول لي أحد جيرانهم أنهم بالمشفى، ذهبت بسرعة، تمكنت من الوصول إليهم رغم الازدحام الذي كان في المشفى، افترش الناس كل الأماكن، على الأسرّة والممرات حتى في الفسحة الملاصقة للمشفى تحت الأمطار.

شعورهم بالألم، آهاتهم وأنيهم، يأتي لمسامعي من كل الجوانب، ثيابهم ممزقة ودمائهم ملأت الأرض، بكيت بشدة عند لقائي بأختي وأولادها، اختلفت ملامح وجوههم لدي، لم أستطع التعرف عليهم بسبب إصاباتهم البالغة.

أسرعت إلى الطبيب وطلبت منه أن يعالجهم ويضمّد جراحهم ويوقف نزفهم، ليجيبيني على عجلة هناك حالات أخطر تهدد حياة الآخرين.

فعلا الإصابات كانت شديدةً حالات البتر كثيرة أيضاً.

سمعت صوت الطبيب يقول: علينا جميعاً المساعدة، لا تقصروا بذلك فلدينا قلّة في الطاقم الطبي لتسرع وأساعدهم بما أستطيع حتى أني ناولتهم المعدات الجراحية التي يريدونها، وساعدت بتعقيم الجروح.

كانت يداي ملطختان بالدماء تفرّص في الجراح المفتوحة، لم أكن معتادة على رؤية مثل تلك الحالات، كاد قلبي أن يتوقف من هول ما رأيته لكنني لم أظهر الخوف والعجز أمام تلك الحالات بل كنت أواسيهم بكل ما أوتيت من قوة، فلا وقت للانهيار.

ذهبت بعدها أتفقد أختي وعائلتها، وجدت أن حفيدتها توفيت، لم تتحصل تلك الطفلة إصابات البليغة.

بعد عدة أيام زال الخطر عن أختي المصابة وأولادها قرر الطبيب إخراجهم من المشفى، ورغم ما أصابهم كان عليهم أن يفكروا أين سيقيمون. فبيتهم النّول لم يعد صالحاً للسكن، رفضوا فكرة العيش مع أحد لأن عائلتهم كبيرة، وخوفها أيضاً جعلها ترفض السكن تحت أي سقف، انهارت ببعض اللحظات، وصارت تصرخ وتقول: أريد خيمة لا أريد أن أفقد أحد آخر.

وجدوا خيمة ليعيشوا بها جميعاً، كانت صغيرة جداً لا تتسع للجميع، لكنها لم تتقبل فكرة أن يكون أولادها بعيدون عنها فكانت لهم الأب والأم معاً.

وقتها كنت أريد العودة لمدينتي، معي أولادي الثلاثة أيضاً لكنهم تفرقوا واحد عند أخي والتّخر عند أختي لتبقى ابنتي معي كان ذلك كفيلاً بأن يضيف عبئاً آخر علي، لكن ليس أمامي خيارات يجب أن أقوم

في خدمة أختي المصابة.

بعد بضعة أيام التقينا أنا وأولادي وقررنا العودة إلى عفرين، للأسف اليوم الذي وصلنا فيه إلى البيت حصلت هزة ثانية. تكرر نفس السيناريو، رغم أنها كانت هزة أخف من سابقتها، لكن الخوف تملك قلوب الجميع لم تعد عندنا الجرأة الكافية لنبقى في البيت وخاصة نحن في الطابق الرابع.

قررنا السكن في المخيم، وكانت الصدمة بالنسبة لي، لم أكن أعلم أنه سجنًا، فكان هناك أوقات للخروج وأوقات للعودة إليه. ولم أستطع التحمل كان بنظري استعباد، غادرت المخيم، فجدران بيتي المتصدع أرحم. لكن خوفنا من سقوط الجدران منعنا من العودة إليه، فقررنا نصب خيمة أمام البناء الذي كنا نسكن به.

كنت وحيدة بها مع أولادي، لم أجد فيها الراحة المطلقة، لكنها أرحم لي من الخيارات السابقة، ووجدتها قصرًا فقد كانت حلاً للجميع.

بعدها تابعت عملي ضمن فريقتي التطوعي الذي عمل على الاستجابة للحالات الطارئة، وتقديم يد المساعدة للناس فهول الكارثة جعل الكل متعاون رغم حاجته لمن يهدئ من نفسه ويخفف عليه وطأة ما حدث.

ذكريات باردة

هند مراد

بعد تهجير وتشريد وخوف من القتل والقصف، صار همنا أن نجد مشاعر الحب والأمان في المكان الذي نحن فيه، لم يكن لدي أدنى شك أن منزلي ومكان سكني وسكيني ألد وهو بيتي الصغير سيتحول يوماً إلى مصدر خوف وقلق لي وكابوس يرافق تفاصيل حياتي، تلك التفاصيل الصغيرة التي عملت جاهدة كي أجعلها تبعدني عن الواقع، لأحيا كما أريد مع زوجي وأطفالي.

في ذلك الصباح من صباحات شباط الباردة، استيقظت باكراً متألمة وجوه أطفالي وزوجي النائمين بقربي، كان وجودهم كفيلاً لأن أخلق بعيداً فوق الغيوم، ومثل كل الأيام كان علينا النهوض فأمامنا يوم طويل، هجرنا أنا وزوجي فراشنا الدافئ، وذهبت لأحضّر القهوة، وأي قهوة تلك، لن أطول في الشرح لكن تحضيرها كان من أجمل طقوس حياتنا. لم تنتهِ جلستنا حتى استيقظ صغاري كرف عصفير يغرّدون حولنا بكلماتهم، ويملؤون قلبي بالحب والحياة والأمل الذي أستطيع بعده الذهاب للعمل وكلي نشاط وحيوية. فأنا أعمل موظفة في إحدى المنظمات الإنسانية كمراقبة للمراكز الصحية ويجب أن أكون بكامل طاقتي لأتحدث مع المرضى، وأتحمل ضغط العمل لساعات طويلة. نعم لقد كان هذا العمل مصدر رزقي، وبنفس الوقت كان المسبب لتلام شديدة في ظهري وقدماي، لكن هذه ليست معاناتي وحدي. فأغلب النساء العاملات يعانين هذه التلام، ونبذل جهدنا للتوفيق بين مهمتنا الأساسية كمهات، وعملنا خارج المنزل لتأمين احتياجاتنا في ظل ظروف اقتصادية سيئة لبلد مزقت الحرب والتشريد والتهجير أوصاله، لذلك رتبنا أنا وزوجي حياتنا وعملنا كي لا نترك أطفالنا وحدهم، فعملي يبدأ صباحاً وينتهي في 4:00 عصرًا، وحين عودتي يذهب زوجي لعمله. وكما كل الأيام عندما عدت استقبلني صغاري العصفير، احتضنتهم.

تناولنا الطعام وذهب زوجي لعمله، وأنهى الصغار واجباتهم، وأطاديتهم عن المدرسة ومتاعبهم! نعم حتى الصغار لديهم متاعب مثلنا. مضى النهار بدفع عاد أبيهم من عمله تجمعنا حوله لبعض الوقت، ثم خلدنا إلى النوم. لم نعلم وقتها أن هذا الدفع والهدوء سيأتي بعده عاصفة تبدد كل مشاعر الأمن والأمان الذين نعمنا به.

استيقظنا تلك الليلة على دوي صوت ضخم لا نعرف مصدره، جعل زوجي ينتفض ويصرخ: انهضي بصوت عال، ثم أخذت الأرض تتأرجح تحتنا. شعرت أن جسدي صار جليداً وتجمدت أطرافني، أنا التي يملأ العطاء والحنان قلبي تجمداً، وعجزت عن النطق والحركة، أيعقل أن يحدث هذا لي؟! فأنا رغم كل الذي حصل معي لم أستسلم، ربما شعرت بدنو الأجل، وصرت كدمية محبوسة لا تقوى على فعل شيء. لقد استوعبت شيئاً واحداً وهو أن المبنى سينهار واستسلمت لفكرة الموت وأنا لا أستطيع الحراك من مكاني، أصبحت أشبه بجثة هامدة، وكان صوت زوجي وهو يكبر وكأنه يعلن نهاية حكاية سرب العصفير في ذلك الحي. لقد سلمت لهذا الأمر، لكن كنت أريد أن أبقى الصغار بجانبني عندما ينهار المبنى، لنكون معاً في الموت والحياة، بأصابع مرتجفة بدأت أضعهم بيني وبين أبيهم وهم يتساءلون ماذا يحدث؟! لا أستطيع الرد عليهم، فقط أمسك بهم. كانت دقائق مخيفة لا أتمنى أن تعود لمخيلتي، فكلما تذكرتها ترتجف أناملني ويعود الخوف لثنايا روعي. وهما هي أناملني وثنايا روعي ترتجف عندما أذكرها.

ودون سابق إنذار عاد شريط ذكرياتي لأشياء تعتصر قلبي من الألم. تذكرت أن ولدي طلب مني الذهاب لمدرسته في حفلة نهاية الفصل الأول، لكن لم أستطع الذهاب كباقي الأمهات بسبب ساعات عملي الطويل، ورغم أنني طلبت من المعلمة تصويره، لكن تلك الصورة بيّنت

لي أنه حزين لغيابي، وعندما رأيتهما نزلت دمعتي، وكأنها قطرة من حمم بركانية.

ابتلعت ريقِي وكأنها أنفاسي الأخيرة واستمر زوجي بالتكبير، وقلبي يتقطع حزناً وألماً على أطفالي، لا أريد لحياتهم أن تنتهي هكذا، أريد أن أحقق لهم كل ما يمتنون وأن أكون معهم في كل الأوقات، هنالك أشياء جميلة لم أفعلها معهم، كانت طفلتي الخائفة بين يدي بالأمس تريد لعبة، لم أستطع أيضاً أن أشتريها. أمعنت النظر إلى عصفيري الصغار واحداً تلو الآخر وكأني أودعهم بقهر ولوعة، وتتساقط دموعي، ولساني عاجز عن الكلام، كانت كل الذكريات مؤلمة رغم أنها مرّت في ثوان، قبل أن أتفاجئ بانقطاع الكهرباء، ولم أعد أرى وجه صغاري، حينها خرجت كلمة واحدة مني الهاتف، وأسهرت لأحمله وأشعل ضوءه لأعيد بصيص أمل لأولئك الصغار. لقد كنت في أسوأ حالاتي، كانت حالة من الانتظار المميت، الذي لا تعرف له نهاية سوى الموت المحتم، ودنو أجلي.

نعم كل هذا كان يجول في خاطري، إنه الموت فلا شيء غيره يعكر صفو ليلتي، يا الله ماذا فعلنا حتى نستحق كل هذا الألم؟! ماذا فعل هؤلاء الصغار وأحلامهم البريئة حتى يعيشوا تجربة كهذه؟!

وخلال تفكيري هذا توقف المبنى عن التأرجح! وتوقفت صراخات زوجي التي كانت تعلن قيام القيامة داخل قلبي حيث تجمدت الدماء في عروقي!

توقف المبنى ولم ينهار وبدأت أسمع صوت صرخات الجيران وهم يهرعون بالنزول من الطوابق العليا، وأنا لا زلت مكاني أحتضن أطفالي، مشلولة الحركة، كان صراخهم ونزولهم بمثابة الحافز لي بأن الحياة لازالت

أمامي، وليس لدي متسع من الوقت لانتهاز الفرصة وأعود للحياة من جديد، أعود لقوتي بل أقوى مما كنته، لأن عليّ أن أعارك ذلك المبنى وأغادر منه قبل أن ينهار. بسرعة صرخت بأطفالي، البسوا ستراتكم فقط، واحملوا أحذيتكم، وأسرعت ألبس حجابي وسترتي، وحملت ابنتي ذات الخمسة أعوام، وطلبت من ابني أن يمشي بسرعة ولا يتوقف أبداً حتى يصل الشارع.

اعترضني زوجي قائلاً: إلى أين؟! لو كان المبنى سينهار كان انهار.

صرخت بالجميع إلى الشارع، حين أتأكد أن المكان آمن سأعود، لكن التّن لن أبقى ولا ثانية، واتجهت نحو باب الشقة، صادفت جارتني كانت أصغر مني لكنها لا تستطيع الحركة، كان عليّ تجاوزها لأنقذ أطفالي فهم أغلّس ما عندي. لقد نجونا أنا وأسرتي ونحن التّن بأمان في الشارع! ليس هنالك طوابق ستتهار فوقني ولا جدران تتصدع.

تعالّت صرخات الناس حولي بأنه زلزال، شعرت أن المطر يهطل علينا معلناً ولادتنا من جديد. تمايلت الأرض تحت أقدامنا من جديد، بدأ الناس بالابتعاد عن المباني والنزول إلى مكان مفتوح، ولكنه كان بعيداً عن بيتي، قرب دوار السرايا، تبعنا الجميع إلى هناك، لنبحث عن الأمان.

كنت متشبثة بيد زوجي تذكرت ما حلمت به قبل أيام، يا للهول إنه ليس وقت الذكريات! لكنها عادت بقوة هذه المرة كنت أرى الناس تتجمع في هذا المكان وأناي أضعت أحد أطفالي فيه. فتوقفت عن المشي، قال زوجي: لماذا توقفت؟ قلت له: أتذكر حلمي الذي تحدثت لك عنه؟ ها هو يحدث، كان الحلم كما وصفته له قبل أيام، فقال لي: ماذا تريد أن تفعلني سأفعل، لكن اهدأي فنحن لم نؤذي أحداً، إننا طيبون سننجو لا تخافي وأمسك يدي.

أيقنت أنه كان الرفيق والزوج والنخ والألم والأب لي. فأنا وحيدة في
غفريين مع أطفالتي ليس لي أحداً هنا. توقفنا تحت شمسية إحدى
المحال لنحتمي من المطر لا نعرف أين نذهب، لكن كل ما يهمني أنني
ولدت من جديد عندما نجوت مع أسرتي، يا الله!

حلّ الصباح، وعدنا لمنزلنا بعد وقفة طويلة دامت ساعات، منزلي
الذي كان مأمني، لقد تشققت جدرانه، لكنه كان أقل ضرراً من غيره من
المباني، فلقد رأينا أن هناك مباني انهارت بالكامل. وكان هناك ضحايا،
ومصابين تحت الأنقاض، لقد نجوت أنا، نعم نجوت، لكن كان هناك من
مات، وهناك من أصيب.

شعرت بالألم والحزن والحرقه تجاه المصابين، وبعد عطلة دامت أربعة
أيام، اخترت أن أترك أطفالتي مع والدهم وأشارك بالاستجابة التي قامت
بها منظمنا لإغاثة الناجين والمصابين، فعملي لم يكن مصدر رزقي لي
فحسب، إنما كان عملاً إنسانياً نابعاً من القلب قبل كل شيء. شاركت
مع زملائي في الإغاثة كنا نذهب للخيام ونحاول تقديم المساعدة،
كان الناس بحاجة لمن يواسيهم في محنتهم ويسمع كلماتهم، لقد
رأيت أبناء بلدي يقفون سوياً يقتسمون الطعام والشراب والأحزان معاً،
يقفون في الشوارع لا ينامون يحاولون إخراج العالقين تحت الأنقاض،
خلال هذه الأيام فرق الإنقاذ لم تنم أبداً، فهناك أرواح تنتظر أيديهم
البيضاء لتنتشلهم من ركام الألم.

يا لها من ذكريات! تخرج من أعماق قلبي، كأنفاس باردة، تحوّلني
إلى جليد قابل للكسر وتجمد مشاعري. ورغم مضي أشهر، لازلت أكره
المطر وأخافه، فهو يجعلني أتذكر دقيقة صمت كانت أشبه بتوقف
مفاجئ لملك الموت وتغيير رأيه عن أخذ روحي. نعم لقد ولدت من
جديد، وولدت معي كلمات دافئة تخبرني دائماً أننا نستحق الحياة.

مرثیوم بسلام

یسرا حیدر



صارت أيامنا مختلفة، لم نعد نعيش ذاك الروتين الذي مللناه وأردنا أن يتغير يوماً، فكل يوم يمرّ بنا يحصل بطيئاته مجريات وأحداث جديدة لم نكن نتوقعها أبداً، بعد أن فاقت حدود عقولنا.

أنهيت عناء يومٍ طويل بدأ من السادسة صباحاً حتى الثانية عشرة والنصف ليلاً، مليئاً بالأعمال داخل المنزل وخارجه، لا يخلو أيضاً من تدريب فيزيائي أول النهار، وعبر الإنترنت مساءً، وتواصلت تكاد لا تنتهي. أغلقت الباب توب، تركت أوراقتي مبعثرة حولي، واستسلمت للنوم مرهقة وأنا أقول لنفسني سأتابع غداً.

تعب ذلك اليوم كان كفيلاً أن يصمّ أذني عن كل الضجيج الذي حولي، وكان أعلاها صوت ابني فهد الذي يملأ جدران المنزل مع كل هدفٍ يُدخله فريق كرة القدم الذي كان يتابعه. فتحت عيني بخدر، وصرخت عليهم بأن يناموا، وعدت للنوم مجدداً وكأنني أخذت حبّ منوم من العيار الثقيل.

استيقظت مجدداً على صوتهم في الساعة 4:17 دقيقة، لم يكن صوتهم عادياً لم يعودوا مشجعين كان الذعر يقطع حناجرهم وهم يصرخون أمي.. أمي. حاولت النهوض لكن توازني كان مختلاً، لأقف وأقع على الأرض، كأن الحوار أصابني من جديد، لكنه ليس مثل كل مرة إنه أقوى بكثير فأنا أهترّ، وكل ما حولي يهترّ أيضاً.

لا.. لا.. إنه ليس حواراً إنه زلزال. لا أعرف بالضبط كيف صرخت وقلت لثولادي اذهبوا خارج المنزل، لأجد أخي وعائلته أيضاً عند باب البيت، وكل من في البناء يركضون ويصطدم بعضهم ببعض، في مدخل البناء الضيق، مع انقطاع التيار الكهربائي لحظة وقوع الزلزال، كان الظلام دامساً، لا تخفف عتمته أضواء الموبايلات بأيدي من حولي، لكنها ترينا كيف توسعت حدقاتنا بفعل العتمة والخوف.

لم يكن أحداً يعرف ما الذي يفعله سوى التكبير والدعاء ونداءات الاستغاثة التي يقطعها بكاء الأطفال، وكان هذا الضجيج يعلو تارة ويهدأ تارة، ليملأ المكان صوت زخات المطر التي ازدادت غزارتها حينها، ويسمع جريان الماء على الأرض بوضوح.

كان كل ذلك كفيلاً بزيادة حجم التوتر والهلع الذي كنا فيه. وددت لو تحتضن يداي أولادي وأبكي بصوت يسمعه الجميع لكن نظرات الخوف التي تشع من عيونهم جعلتني أهدئ من نفسي.

بعض الناس ركبوا سياراتهم وهربوا بعوائلهم خارج المدينة، بينما بعضهم الآخر فقد كان عاجزاً تماماً عن التصرف.

ركضت إلى المنزل بسرعة لأحضر معاطف أولادي وأحذيتهم، بعد أن ابتلت ثيابهم وتجمدت أطرافهم من البرد، أحضرت معي أيضاً الهاتف، أريد الاطمئنان عن أهلي الذين يقيمون في إعزاز، حيث أن أمي لم تفارق خيالي لحظة فهي مريضة لا تستطيع المشي فكيف لها أن تركض.

وكذلك أردت الاطمئنان على أختي وأولادها التي تسكن ضمن منطقتنا، فقد سمعت أحدهم يقول عن الشارع الذي تسكن به أن هناك الكثير من الأبنية أصبحت على الأرض، كان قلبي يغلي ويحترق عليهم ولم يردوا على رسائلي.

كان كل شيء مربكاً، الإنترنت متقطع وجوالي يكاد يفرغ من الشحن، ومضت ساعتان تقريباً قبل أن نعاود الدخول للبيت، نحن وعائلة أخي، فلم نعد نحتمل البرد. كنا ننظر لبعضنا ويعلو وجوهنا هدوء مخيف، حينما ركض ابني الذي بقي خارج المنزل، وهو يقول: جاءت خالتي وأولادها.

دخلوا علينا صفر الوجوه لباسهم يعتصر ماءً، أطرافهم ترتجف، وتكتكة أسنانهم مسموعة من البرد الذي أصابهم. لتخبرنا أختي وهي تبكي، وقع البناء الذي كنا نسكن به، لقد خرجنا سالمين بمعجزة، كان الرعب بادٍ على وجوههم.

جلسنا جميعاً داخل غرفة صغيرة قريبة من الباب، أربعة عشر شخصاً، الكل مستعد للهروب بأي لحظة. كان بعضنا يترقب هاتفه وبعضنا غلب عليه النعاس ليتكى على كتف الشخص الذي بجانبه، ومنهم لم يفارق الباب لحظة وبقي واقفاً مستعداً لأي طارئ قد يحدث.

لم يهدأ هاتفي، يريد الجميع الاطمئنان على أهاليهم البعيدين عنهم، يظنون أنني أستطيع الوصول إليهم بسهولة. استلمت رسالة من أخي تطمئننا عن حالهم وأنهم وأمي بخير، شعرت بفرح خفيف يغمر روحي. لكن عدت مجدداً أراقب المجموعات الإخبارية والعائلية، ولسان حال الجميع يقول جندرس على الأرض، أغلب أقرباء زوجي يسكنون فيها، وكل من يعرفهم يتواصل معنا ليستبين أخبارهم فنحن أقرب إليهم منهم.

لا أعرف ما أقول لهم، هل أقول: نعم ما تسمعون من أخبار كلها صحيحة، أقول لابنة أخت زوجي التي تريد أن تعرف خبراً عن أخيها وعائلته، وتطمئن عليهم، أن البناء الذي كانوا يسكنون به صار على الأرض، ولا يزال البحث جارٍ لانتشال الجثث والعالقين تحته.

شعور بالعجز، آمال وآمال لازالت معقودة ليكونوا من الناجين.

ليفقد ذاك الأمل ويجدونهم بعد خمسة أيام جثث وأشلء هو وزوجته وابنه تحت الأنقاض.

ويمر يوم تلو الآخر، وتأتي أسماء وصور الباقيين لنعرف من نجا ومن أصيب ومن فارق الحياة، وتكبر المأساة، ويزداد أعداد الأموات وأعرف مكان بعض الناجين لأذهب واطمئن عليهم.

إيناس تلك الفتاة ذات السادسة عشرة من عمرها التي فقدت والديها وأخوتها الأربعة، وبقيت عالقة تحت الأنقاض سبع ساعات هي وأخيها تنتظر النجاة. كانوا يستطيعون الخروج في الثواني الأولى من الزلزال، كما أخبرتني، فهم يسكنون منزلاً في الطابق الأرضي من ذلك البناء المؤلف من أربع طوابق، لكن والدها أصرّ على البقاء مجتمعين كلهم بمكان واحد. لتنزل تلك الأسقف فوق رؤوسهم، وكان ذلك كفيلاً بأخذ أرواح والديها وأخوتها الثلاثة، ونجت هي وأخيها وأختها الصغيرة ذات الخمس سنوات التي احتضنتها إيناس بيديها لتحميها وضممتها لصدرها، لتكونان جسداً واحداً لا يستطيع الحراك، فمروحة السقف عالقة بشعر رأسها، وثقل الطوابق كلها أنهكت عظامها وهرست لحمها، وأختها تالئ بكى وتصرخ قائلة: (بعدي عني... تركيني... خنقتيني.... موتيني).

تجهش إيناس بالبكاء وهي تعيد على مسامعي الكلمات الأخيرة لأختها، وتلمس خدها مع كل كلمة كأنها تتحسس آخر أنفاس أختها التي لامست خدها قبل أن تستسلم للموت وتمضي بالركب مع والديها وأخوتها، تاركة إيناس وحيدة مع أخيها الذي كانت تسمع صوته المذنوق يستغيث أيضاً.

صحت إيناس على سريرها في المستشفى، وكان أخيها نعيم في سريرٍ يقابلها صوته يملأ المكان يصرخ ويقول: (بدي رجلي.. رجعولي ياهـا)

كيف لهذه الطفلة أن تتحمل كل هذا؟

كيف لها أن تنسى أنفاس أختها وفمها ملاصق لخدّها؟

هل ستحرر من ذاك الضيق الذي عاشته كل تلك الساعات؟

فقد.. وعذاب.. وألم. لا يحتمله جسداً قوياً وعقلاً حكيماً، فكيف لتلك الطفلة النحيلة أن تتحمل؟! من هم مثلاً ما زلن يبكين على لعبتهن الصغيرة.

قصص وقصص شبيبت رؤوسنا من هولها.

انتهى الزلزال، لكن استمرت الهزات الارتدادية ترافقنا. وبقيت مجموعات الواتس وصفحات الفيس تتحدث عن زلزال أكبر من الأول سوف يصيب المنطقة، يتناقل الناس كل هذه الأخبار بسرعة، ويكاد الخوف من زلزال آخر يوقف قلوب الجميع. لتحصل هزة ارتدادية كانت أقوى من سابقتها، هربنا من جديد إلى الخارج، تفقدت أولادي لأخرجهم قبلي، وقع ابني أرضاً للحظات، لا أعرف ماذا أصابه، وعندما وقف ركض وحمل كرتة وخرج بها مسرعاً، سألتها لماذا تحملها ليحيني لا أعرف ورمها أرضاً. ربما أشعره ذلك بالراحة والطمأنينة لدى حمله للعبته المفضلة، فتعلقه بها رافقه حتى بتلك اللحظات.

بعد تلك الهزة زاد إصرار فهد على أن نسكن في المخيم القريب منا، لم أقبل الخروج من المنزل والعيش في خيمة أبداً. كان ذلك يوترني جداً، لكي يأتي كلام زوجي دائماً ويهدئ من نفسي ويجعلني أشعر بالسكينة، فقد كان يقول لن نخرج من البيت، لم يعد هناك شيء، لا تخافوا فالله لم يعطي علمه لأحد.

كنت أحاول نقل الهدوء لأولادي، لكن كلامي ومحاولة إقناعهم بأنه لن يحدث شيء بعد اليوم لم يشعروهم بالأمان. إذ أن قصي أبى أن يخلع

حذائه كل تلك الفترة لئلا يحدث شيئاً فجأة فيكون بذلك جاهزاً للركض. لفتني تصرفه فهو الذي كان يعتمد عليّ اعتماداً كلياً بات يركض لوحده دون أن يناديني أو يقول لأحد أنه ذاهب للساحة التي بجانب المنزل، ثم يعود ساعة يريد.

أما عن محمّد ابني الصغير، فبعد أن اعتاد النوم بعيداً عني في الفراش عاد ليحضنني يومياً ويمسك ذراعي ويلقّها حول رقبته حتى يستطيع النوم.

كنت أتابع الأحداث بشكل يومي، واضرة السماعات في أذني لأعيش المشهد لوحدي بعيدة عن كل ما حولي.

ما زلت أسمع أصوات الأبنية التي تنهار، وأسمع الأصوات المخنوقة داخلها، ومازاللت عيناى تلمح الأكياس البيضاء والسوداء المخصصة لوضع الجثث والأنشاء فيها، والمقابر الجماعية والأرقام التي عليها.

رغم القهر والألم الذي حلّ بنا، لم نقف مكتوفي الأيدي الكل أراد المساعدة نساء ورجال، فالجميع كان بحاجة لكلمة تجبر خواطرهم وتشفي مصابهم. والأطفال رغم هول الموقف، لعبة صغيرة أدخلت الفرحة لقلوبهم وزادت السرور في نفوس أهاليهم.

عند سؤالنا للأطفال ما الشيء الذي ترغبون أن نحضره لكم؟

تذكرت ابني عندما حمل كرتة وركض بها لحظة وقوع الهزة، بعضهم اختار لعبة وبعضهم اختار كرة والبعض اختار أدوات رسم.

كان كل شخص يرس الأمان والراحة بعينيّه، فمنهم من نام قرير العين في خيمة، ومنهم من لم يجد الراحة فيها، بل وجدها في فراشه

رغم التشققات التي رسمت خارطة الزلزال على جدران بيته الإسمنتية
وتركت بصمتها في ذاكرته، وفي ذاكرتنا جميعاً لتجعلنا حين نغفوا أو
نستيقظ نقول في سرنا «مرّ اليوم بسلام».

عندما ترتجف الأرض

وفاء نجيب

وفي الساعة الرابعة سمعت زوجي ينادي بصوت عالي وفاء هيا نخرج من البيت إنه زلزال.. مشيت نحو غرفتي، كنت أتلمس بصيص الضوء، وأخذت أتذكر عندما زلزلت الأرض بي للمرة الأولى قبل تسع سنوات أثناء اعتقالني، كأن كل شي يحدث الآن، أصوات المعتقلات، رائحة الموت، الألم، فكل ما يعيشه الناس الآن من خوف وقلق يشبه ما عشناه أنا وكثير من المعتقلين/ات غيري في سجون النظام المجرم. نعم من بداية الثورة زلزلت الأرض تحت أقدامي وعشت هذه المخاوف كلها.. كانت الجدران تتمايل يمينا وشمالا.. والنساء تصرخن خوفاً على أطفالهن وأرواحهن.. كان كل شيء يذكرني بذلك المكان الذي هزّ مشاعري وجسدي من قبل.

روعة حيدر

استجمعت قواي لبداية جديدة والتحقت في العمل، وللمفارقة كان مع الناجين والناجيات من الزلزال، لم يكن سهلاً أن أكون في فرق المساعدة وأنا منهكة. شحذت ما تبقى مني، وأخذت أقدم اللطف، والصبر، الذي كنت بحاجة. فالقلوب مكسورة، ورائحة الموت تملأ المكان، والمصاب جل. حين أفكر في عملي أظن أنني قطعت شوطاً، فكلنا نعتقد أنفسنا نضقد جراح من حولنا، لكن فعليا عندما تعطي أنت من سيشفى، العمل شفاء لذاكرتنا المتعبة.

إيمان دياب

في مجتمعي عليك أن تموتي ألف مرة ولكن لا ترفعي صوتك بأنك تريدين الطلاق.. لم أعد أقوى على النهوض إبني الصغير في حضني وصديقتي ندى أمام عيني وأطفالها الصغار.. تخبرني ندى عن تلك اللحظة، بأنها كرهت كل ماله علاقة بالرجال تقول: نزل كل رجال المبنى وأنا لوحدي أقطع العشر أمطار لأصل للدرج والكهرباء قُطعت والدرج أضى سلاماً طويلاً يطول ويطول، في منتصفه تذكرت أنني أرّدتى ملابس النوم، ماذا أفعل؟ هم ليسوا رجالاً لأستحي منهم.. وتهمس في أذني سأخلع

يسرا حيدر

يزداد أعداد الأموات، وأعرف مكان بعض الناجين لأذهب وأطمئن عليهم.. رغم القهر والألم الذي حلّ بنا، لم نقف مكتوفي اليدي الكل أراد المساعدة نساء ورجال، فالجميع كان بحاجة لكلمة تجبر خواطرهم وتشفي مصابهم. والأطفال رغم هول الموقف لعبة صغيرة أدخلت الفرحة لقلوبهم وزادت السرور في نفوس أهاليهم.